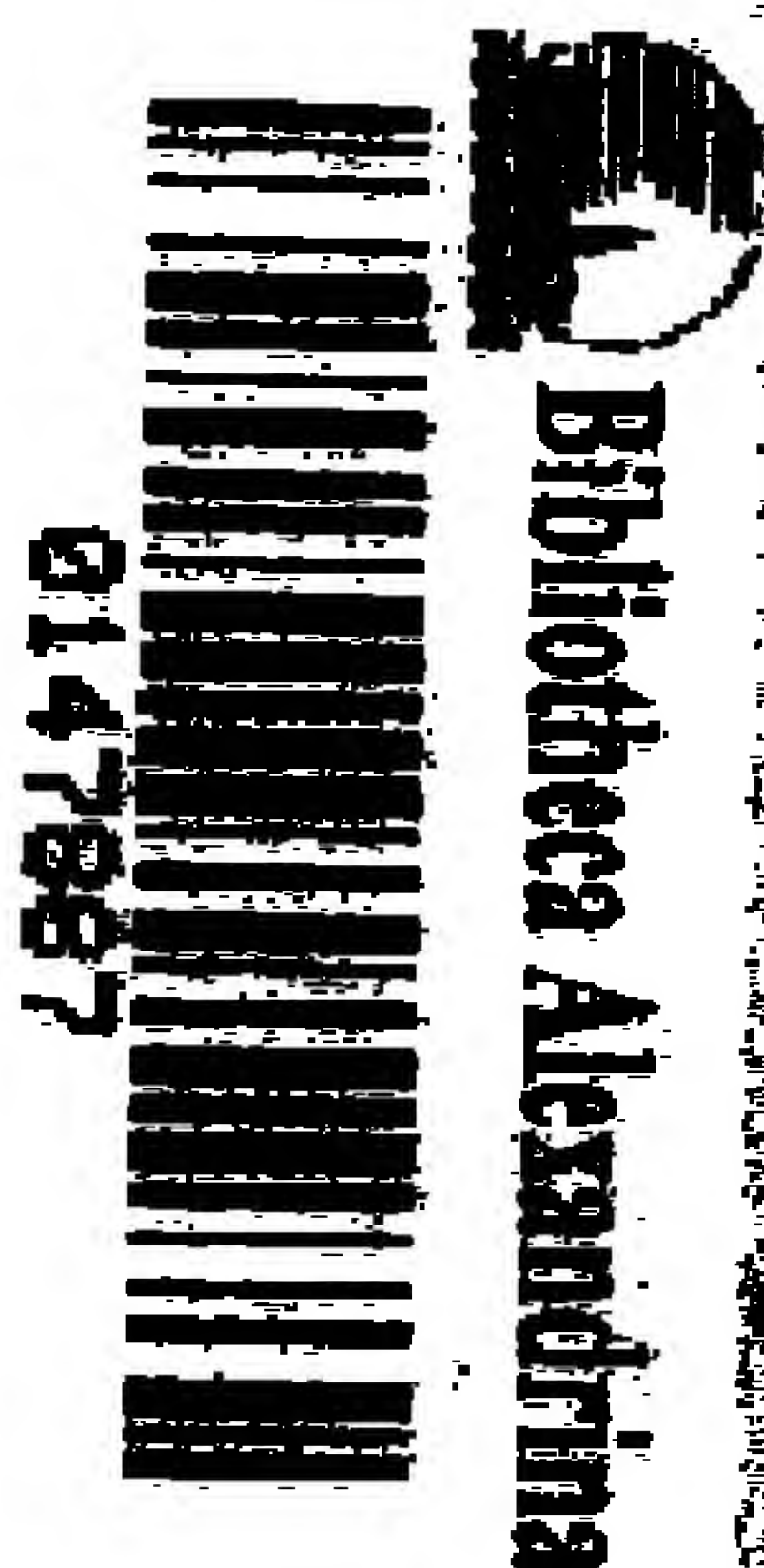


لمزيد برغسون

الضحا

ترجمة
د. عايض قلند



توضيح من المترجم

هذا الكتاب لهنري برغسون عنوانه جذاب : « الضحك » . ولهذا فهو يضلل قليلاً . فالضحك مطلب فردي واجتماعي ، خصوصاً في الأزمات المتمادية . ولكن كتاب الضحك هذا ليس أداة تسلية . الأولى أن يكون حافز تفكير . هذا الكتاب لا يُقرأ إلا في حالة من النشاط قوية . فاللغة وأسلوب المعالجة ومضمون الأفكار يقتضي ذلك .

يعالج المؤلف فوائد الضحك فردياً واجتماعياً ، كما يعالج وظيفة الضحك وعلاقته بالغرور والخجل والتكبر والانفعال ، وحتى علاقته بالجنون . ولكنه يقتضي من القارئ انتباهاً ومعرفة لا تيسران لكثير من الناس . فالضحك في الكوميديا وفي المهزلة وفي المسخرة ، والتهريج في الدمى المتحركة ، بل وحتى في عمق التراجيديا ، ليست كلها بمتناول العامي من المثقفين .

إن هنري برغسون حين يكتب عن الضحك وعلاقته بالتصلب وبالسهر وبالتكرار وبالاتوماتية إنما يفعل ذلك بعقل المفكر الحزين الذي يرى أن ساعة الأُنس ليست خالية من نكهة مرارة تفرضها تراجيدية الحياة . ويتساوى في الشعور بهذه المرارة الفيلسوف واللامبالي من الناس ؛ الممثل والمُشاهد . . .

ويستعمل الكاتب المجاز والتشبيه والرمز والمقارنة وكل أساليب البيان ؛
وهذا يقتضي من القارئ المتبع معرفة عميقة ودقيقة بالثقافة الغربية ،
وخاصة الفرنسية .

وقد حاولنا قدر الإمكان أن نشرح ملابسات بعض الدقائق . ونخلاصة
القول أن هذا الكتاب أداة تفكير لا أداة تسلية . فليكن القارئ على علم
بذلك . وشكراً

المترجم

المقدمة

يتضمن هذا الكتاب ثلاثة مقالات حول الضحك (أو بالأحرى حول الضحك الذي يثيره الهزل ، بشكل خاص) . وقد نشرت هذه المقالات ، قبل ، في « مجلة باريس » . وعندما جمعناها في مجلد ، تساءلنا ما إذا كان يتوجب علينا أن نتفحص في العمق ، أفكار من سبقنا ، لتأسيس نقد يتخذ كقاعدة لنظريات الضحك . لقد بدا لنا أن عرضنا سوف يتعقد ، بما لا حد له ، ويتخذ حجماً لا يتناسب مع أهمية الموضوع المعالج . وقد سبق لنا ، مع ذلك ، أن ناقشنا أهم تعاريف الهزل . . بصورة ضمنية أو صريحة ، وإن بإيجاز ، بمناسبة هذا أو ذاك من الأمثلة التي تحمل على التفكير بأحد هذه التعاريف . وقد اكتفينا إذن بإيراد مقالاتنا . وأضفنا إليها فقط لائحة « بالمؤلفات الرئيسية التي نشرت حول الهزل في الثلاثين سنة الماضية .

وقد ظهرت مؤلفات أخرى منذ ذلك الحين . واللائحة التي نقدمها فيما يلي ، قد استطالت ولكنها لم تحدث أي تغيير في الكتاب بالذات (باستثناء بعض التزيين الشكلي) . ليس لأن هذه الدراسات المتنوعة لم توضح - بالتأكيد - وحول أكثر من نقطة ، مسألة الضحك . بل لأن منهجنا ، الذي يقوم على تحديد وسائل صنع الهزل ، يتنافى مع المنهج المتبع عموماً ، والذي

يهدف الى حصر مفاعيل الهزل ، ضمن صيغة واسعة جداً ، وبسيطة جداً .
إن هذين المنهجين لا يناقض أحدهما الآخر ؛ ولكن كل ما يمكن أن يعطيه
المنهج الثاني ، أنه يعجز عن الوصول الى النتائج التي يتوصل إليها المنهج
الأول ؛ وهذا المنهج الأول هو ، برأينا ، الوحيد ، الذي يقوم على الدقة وعلى
الوضوح العلميين . تلك ، إذن ، هي النقطة التي نلفت إليها انتباه القارئ
في الملحق الذي أضفناه الى الطبعة الحاضرة .

باريس 4 / كانون الثاني 1924 هـ . ب .

الفصل الأول

الهزل عموماً ؛ هزل الأشكال وهزل الحركات قوة انتشار الهزل

ماذا يعني الضحك ؟ ماذا يوجد في عمق الشيء المضحك ؟ ماذا يوجد من شيء مشترك بين تكشيرة المهرج ، والتلاعب بالكلام ، وغمز المسرح الهزلي ، ومشهد الكوميديا الذكية ؟ ما هو هذا التقطير الذي يعطينا روح العطر ، الدائم الذاتية ، والذي تأخذ منه المسنحضرات المتنوعة : أما رائحتها المزعجة أو عطرها الناعم ؟ لقد عكف أكابر المفكرين ، منذ أرسطو ، على هذه المسألة الصغيرة ، التي ما تزال تهرب أمام الجهد ، وتنساب ، وتتملص ، ثم تنتصب ، كالتحدي الوقح في مواجهة التأمل الفلسفي .

وعذرنا ، لمباشرة المسألة بدورنا ، أننا لا نهدف الى حبس الأصالة الهزلية ضمن حدٍ أو تعريف . اننا نرى فيها ، قبل كل شيء ، شيئاً حياً . ونحن نعالجها ، مهما كانت خفيفة ، بما يتوجب من احترام للحياة . وسنكتفي بالنظر إليها تكبراً ، وتتألق من شكل إلى شكل ويتدرجات غير محسوسة ، نراها ، أمام أعيننا تتحول تحولات غريبة فريدة . ونحن لن نحتقر شيئاً مما سوف نرى . وربما سنربح ، من خلال هذا الاتصال المستمر ، شيئاً أكثر مرونة من تعريف نظري ، سنربح معرفةً عمليةً وحيمَةً كتلك التي تتولد من

الرفقة الطويلة . وربما نجد أيضاً أنفسنا ، دون أن نشاء ، أمام معرفة مفيدة .
إن الإصالة الهزلية ، - العاقلة بحسب طريققتها ، حتى في تجاوزاتها العظمى ،
المنهجية في جنونها ، الحاملة ، وأنا أصر على ذلك ، وإن كانت تثير في الحلم
رؤى تُقبل في الحال وتُفهم من مجتمع بأكمله - كيف لا توضح لنا وسائل عمل
التخيل البشري ، وبصورة خاصة التخيل الاجتماعي ، الجماعي ،
الشعبي ؟ إن الأصالة الهزلية تنبثق عن الحياة الواقعية ، وتقرب من الفن ،
فكيف لا تقول لنا كلمتها أيضاً في الفن وفي الحياة ؟

سوف نعرض في بادئ الأمر ثلاث ملاحظات نعتبرها ركيزية . وهي
تتناول الهزل بالذات أقل مما تتناول المكان الذي يجب التفتيش عنه فيه .

I

هذه هي النقطة الأولى التي نلفت الانتباه إليها : لا شيء هزلي خارج ما
هو « بشري » بشكل خاص . إن مطلق منظر قد يكون جميلاً ولطيفاً وسامياً
وتافهاً أو قبيحاً ؛ ولكنه لا يكون أبداً مضحكاً . ربما نضحك من حيوان ،
لأننا نكون قد عثرنا فيه على موقف كموقف الانسان أو على تعبير كتعبير
بشر . نضحك من قبة ؛ ولكننا نقصد عندئذ الهزل ، لا من قطعة اللباد أو
نش ، بل من الشكل الذي أعطاها إياه الانسان ، بل من النزوة البشرية أو
تموج البشري الذي ارتداه قالبها . لماذا لم تُلفت هذه الواقعة المهمة بهذا
ندار ، على بساطتها ، انتباه الفلاسفة ؟ . العديد منهم عرّف الانسان بأنه
حيوان يعرف كيف يضحك . وكان بإمكانهم أيضاً تعريفه بأنه حيوان
ضحك ، إذ إذا توصل حيوان ما ، أو مطلق شيء جامد الى هذه المرتبة ،
بفضل المشابهة مع الانسان ، وبفضل الطابع الذي تركه الانسان فيه أو
بفضل الاستعمال الذي اتخذ الانسان بشأنه .

نذكر الآن كمؤشر يستحق الذكر ، اللااحساس الذي يرافق عادة الضحك ، يبدو أن الهزل لا يمكن أن يحدث هزة إلا إذا وقع على سطح نفس هادئة جداً ، متماسكة جداً . إن اللامبالاة هي بيئة الهزل الطبيعية . والضحك ليس له من عدو أكبر من الانفعال . أنا لا أريد القول أننا لا نستطيع الضحك من شخص يثير فينا الشفقة مثلاً ، أو حتى الود : إذ عندها فقط ، وللحظات ، يتوجب نسيان هذا الود وإسكات هذه الشفقة . في مجتمع العقول الخالصة ربما لا نبكي ، ولكننا ربما لا نضحك أيضاً ؛ في حين أن النفوس الجامدة العاطفة - والمنسجمة مع الحياة ، حيث يستمر كل حدث كصدئ عاطفي - ، لا تعرف ولا تفهم الضحك . جربوا ، للحظة ، الاهتمام بكل ما يقال ، وبكل ما يجري ، وتصرفوا ، بالخيال ، مع أولئك الذين يعملون ، تحسسوا مع أولئك الذين يتحسسون ، وأعطوا أخيراً لودكم أوسع مداه : وكما لو كانت هناك عصاً سحرية سوف ترون الأشياء الأكثر خفة تتخذ وزناً ، ويغلف التلوين القاسي كل الأشياء . والآن ابتعدوا بأنفسكم ، شاهدوا الحياة كمتفرج لا مبالٍ : الكثير من المآسي تتحول الى كوميديا . يكفي أن نسد آذاننا بوجه صوت الموسيقى ، في صالون فيه حفلة راقصة ، حتى يظهر لنا الراقصون سخفاء في الحال . كم من الأعمال البشرية يمكن أن تقف بوجه مثل هذه التجربة ؟ ألا نرى أن كثيراً منها ينتقل فجأة من الجد الى الهزل ، إن نحن عزلناها عن موسيقى الإحساس الذي يقترن بها ؟ إن الهزل يقتضي إذاً ، لكي يُحدث كل أثره ، شيئاً ما يشبه التخدير المؤقت للقلب . إن الهزل يتوجه إلى الذكاء الخالص .

إلا أن هذا الذكاء يجب أن يبقى متصلاً بذكاءات أخرى . وهذه هي الواقعة الثالثة التي نريد أن نلفت الانتباه إليها . إننا لا نتذوق الهزل « النكتة » إن شعرنا أننا وحدنا . إذ يبدو أن الضحك يحتاج الى الصدى . استمعوا إليه

جيداً : إنه ليس صوتاً مفصلاً ، واضحاً ، منتهياً ؛ إنه شيء ما يريد أن يمتد ، وأن ينعكس من قرب الى قرب ، إنه شيء يبدأ بانفجار ، لكي يستمر بامتدادات ، كما الرعد في الجبال . ومع ذلك فإن هذا الرجوع يجب أن لا يمتد الى اللانهاية . إنه يستطيع السير داخل حلقة تتسع بقدر ما نشاء ؛ ولكن الحلقة لا تعدو أن تكون مغلقة . إن ضحكنا هي دوماً ضحكة المجموعة . ربما قد حصل لك ، في عربة قطار ، أو إلى مائدة في وليمة ، ان تسمع مسافرين يُقَصُّونَ على بعضهم البعض قصصاً يُفترض أن تكون هزلية في نظرهم لأنهم يضحكون منها من كل قلبهم . وبما أنكم تضحكون مثلهم لو كنتم من مجتمعهم . ولكن بما أنكم لستم كذلك ، فإنكم لا تجدون أي رغبة في الضحك . سُئِلَ رجل لماذا لا يبكي عند سماع موعظة يبكي فيها كل الناس ؟ فقال : « لست من هذه الأبرشية » . وهذه الفكرة لدى الرجل عن الدموع تصح أيضاً عن الضحك . إن الضحك مهما بدا صريحاً ، بالافتراض ، فإنه يخفي فكرة خلفية تفاهية . وأكاد أقول تواطؤية ، مع الضاحكين الآخرين ، الحقيقيين أو الخياليين . كم من مرة قيل أن ضحكة المشاهد في المسرح ، تكون أعرض كلما كانت الصالة ممتلئة أكثر . كم من مرة قد لوحظ ، من جهة أخرى ، أن الكثير من الآثار المضحكة ليست قابلة للترجمة من لغة إلى أخرى ، ولأنها متعلقة بالتالي ، بالأداب ، وبأفكار مجتمع معين ؟ ولكن بما أننا لم نفهم أهمية هذا الواقع المزدوج ، رأينا في الهزل مجرد فضول يتسلى فيه الفكر ، ورأينا في الضحك بالذات ظاهرة غريبة ، معزولة ، دونما علاقة مع باقي النشاط البشري . من هنا هذه التعاريف التي ترمي الى جعل الهزل علاقة تجريدية يشاهدُها العقل بين الأفكار « الى جعله تمايزاً فكرياً » ، « لا معقولة ملموسة » ، إلخ ، تعاريف ، حتى لو تلاءمت حقاً مع كل أشكال الهزل ، فإنها لا تشرح إطلاقاً لماذا يضحكنا الهزل . من أين يتأتى ، بالفعل - لهذه العلاقة المنطقية الخاصة ، حالما تُدرك - أن نُقلِّصنا

وَتَمَدِّدَنَا ، وَتَهْزِنَا ، فِي حِينَ أَنْ كُلَّ الْعَلَاقَاتِ الْآخَرَى تَتْرُكُ جِسْمَنَا غَيْرَ آبِيهِ ؟
لَيْسَ مِنْ هَذِهِ الزَّائِيَةِ نَتَنَاولُ نَحْنُ الْمَسْأَلَةَ . مِنْ أَجْلِ فَهْمِ الضَّحْكِ ، يَجِبُ
وَضْعُهُ فِي وَسْطِهِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي هُوَ الْمَجْتَمَعُ ؛ وَيَجِبُ بِشَكْلِ خَاصٍ تَحْدِيدُ
وَضِيفَتِهِ الْمَقِيدَةِ ، الَّتِي هِيَ وَضِيفَةُ اجْتِمَاعِيَّةٍ . تِلْكَ هِيَ ، وَلِنَقْلُهَا مِنْذُ الْآنَ ،
الْفِكْرَةَ الْمَوْجِهَةَ لِكُلِّ بَحْوثِنَا . إِنْ الضَّحْكِ يَجِبُ أَنْ يَتَجَاوَبَ مَعَ بَعْضِ
مَتَطَلِبَاتِ الْحَيَاةِ الْمَشْتَرَكَةِ . إِنْ الضَّحْكِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ لَهُ وَضِيفَةُ اجْتِمَاعِيَّةٍ .

لِنَشْرُ بِوَضُوحٍ إِلَى النِّقْطَةِ الَّتِي تَلْتَقِي عِنْدَهَا مِلَاحَظَاتُنَا الثَّلَاثُ الْأَوَّلِيَّةُ .
يَتَوَلَّدُ الْهَزْلُ - عَلَى مَا يَبْدُو - عِنْدَمَا يُوجِّهُ أَنْاسٌ مَجْتَمِعُونَ كُلَّ انْتِبَاهِهِمْ نَحْوَ وَاحِدٍ
مِنْهُمْ ، فَيُسَكِّتُوا أَحْسَاسَهُمْ ، وَيُعْمِلُوا ذَكَاءَهُمْ فَقَطْ . مَا هِيَ الْآنَ النِّقْطَةُ
الْخَاصَّةُ الَّتِي إِلَيْهَا يَجِبُ أَنْ يُتَوَجَّهَ انْتِبَاهُهُمْ ؟ وَبِمَاذَا يُمْتَدَّخَمُ هُنَا ذَكَاءُهُمْ ؟
الْجَوَابُ عَلَى هَذَيْنِ السُّؤَالَيْنِ يَعْنِي بِالتَّالِي ، مِلَامَسَةُ الْمَسْأَلَةِ ، عَنْ قَرَبٍ وَلَكِنْ
بَعْضُ الْأَمْثَلَةِ تَصْبِيحُ مِلْحَةٍ .

II

رَجُلٌ ، يَرْكُضُ فِي الشَّارِعِ ، يَعْثُرُ ، فَيَقَعُ : الْمَارَةُ يَضْحَكُونَ . إِنْهُمْ لَا
يَضْحَكُونَ عَلَيْهِ ، حَسَبَ مَا أُعْتَقِدَ ، إِذَا أَمَكُنَ الْاِفْتِرَاضُ بِأَنَّهُ خَطَرٌ لَهُ ،
فَجَأَةً ، أَنْ يَجْلِسَ عَلَى الْأَرْضِ . إِنْهُمْ يَضْحَكُونَ لِأَنَّهُ جَلَسَ رَغْمًا عَنْهُ . وَإِذَا
فَلَيْسَ التَّغْيِيرُ الْمَفَاجِئُ فِي وَضْعِهِ هُوَ الَّذِي يَضْحَكُ ، بَلِ الشَّيْءُ غَيْرُ الْإِرَادِيِّ
فِي التَّغْيِيرِ ، إِنَّهَا الرَّعُونَةُ ، إِنَّهَا « الْعَشْمَنَةُ » . رُبَّمَا كَانَ عَلَى الطَّرِيقِ حَجَرٌ .
وَكَانَ مِنَ الْوَاجِبِ تَغْيِيرُ الْمَسَارِ أَوْ تَفَادِي الْعَقْبَةِ . إِنَّمَا لِنَقْصِ فِي اللَّيُونَةِ ، سَهْوًا
أَوْ مَعَانِدَةً مِنَ الْجَسَدِ ، بِفَعْلٍ تَصْلُبُ أَوْ بِفَعْلٍ السَّرْعَةِ الْمَكْتَسِبَةِ ، بِقِيَّتِ
الْعَضَلَاتِ تَقُومُ بِنَفْسِ الْحَرَكَةِ فِي حِينَ تَطْلُبُ الظُّرُوفُ شَيْئًا آخَرَ . وَلِهَذَا وَقَعَ
الرَّجُلُ ، وَمِنْ هَذَا ضَحْكَ النَّاسِ .

والآن هذا رجل يعمل في تأمين احتياجاته بانتظام رياضي . إلا أن الأشياء التي تحيط به قد خربت تنظيمها يد مازح خبيث . فغطس ريشته في المحبرة ، فطلع له فيها طين ، أو أنه ظن أنه يجلس فوق كرسي قوي ولكنه وقع الى الأرض ، أو أنه عمل عكس ما يجب أو اشتغل في الفراغ ، ودائماً بفعل السرعة المكتسبة . لقد أمّن الاعتياد الاندفاع . وكان من الواجب إيقاف الحركة ، أو تحييدها . ولكن بالعكس تماماً ، استمر الشخص بصورة آلية في خط مستقيم . إن ضحية مقلب في مشغل أو معمل يكون أيضاً ، في وضع مماثل لوضع الراكض الذي يسقط . إنها مضحكة لنفس السبب . والشيء المضحك ، في الحالة الأولى كما الأخرى ، هو نوع من التيسر الميكانيكي في الموضع الذي يتوقع فيه وجود الليونة الواعية والرشاقة الحية في الشخص . ويوجد بين الحالتين هذا الفرق الوحيد : إن الحالة الأولى حدثت تلقائياً في حين حدثت الثانية مصطنعة . المار ، في الحالة السابقة لم يكن إلا ملاحظاً يراقب ، أما المازح - الخبيث ، هنا ، فمفتعل يجرب .

وعلى كل ، في الحالتين ، الظرف الخارجي هو الذي حدد المفعول . الهزل إذن عارض ؛ لقد بقي ، كما يقال ، فوق سطح الانسان (خارجه) . فكيف يتسرب الى الداخل ؟ يتوجب أن لا يحتاج التصلب الميكانيكي ، - لكي يظهر ويتكشف ، - الى عائق يقف أمامه بفعل مشيئة الظروف ، أو بفعل خبث الانسان ، بل يتوجب أن يستمد من عمقه الذاتي ، بعملية طبيعية ، الفرصة المتجددة باستمرار لكي يظهر الى الخارج . ولتخيل هنا فكراً يتشبث دائماً بما فعل في الماضي ، لا بما هو فاعل الآن ، كالميلوديا المتأخرة في مصاحبته . ولتخيل نوعاً من عدم الليونة الفطرية في الحواس وفي الذكاء ، تجعلنا نستمر في رؤية الشيء الذي زال ومضى ، أو في سماع ما اختفى رجعه ، أو في قول ما لم يعد ملائماً ، وأخيراً ، في التكيف مع وضع مضى أو مع

وضع خيالي ، في حين كان من المتوجب التكيف مع الواقع الحاضر . في هذه المرة يستقر الهزل في الشخص بالذات : الشخص هو الذي يقدم له كل شيء ، المادة والشكل ، السبب والفرصة . فهل من المدهش أن يكون الساهي السارح (إذ هذه هي الشخصية التي قمنا بوصفها) هو الذي أغرى ، على العموم ، ذرابة المؤلفين الهزليين ؟ عندما التقى لايروير [كاتب فرنسي دقيق الوصف المعني الملاحظة 1645-1696 (الترجمة)] هذه الشخصية في طريقه ، فإنه قد فهم ، عند تحليله إياها ، إنه أمسك بوصفة لصنع مفاعيل مسلية على المكبر . وبالف فيها وتجاوز . فقدم عن مينالك [السارح] أطول وصف وأدق وصف ، مكرراً ، ملحاً ، معيداً بدون حدود . لقد أمسكت به سهولة الموضوع . في السهو ، فعلاً ، ربما لا تقع على مصدر الهزل بالذات ، ولكننا بالتأكيد نكون في مجرى ما من الأحداث ومن الأفكار ، ينبثق بخط مستقيم من المنبع . إننا نقع على مراقب كبرى طبيعية من مراقبي الضحك .

ولكن مفعول السهو والسرمان قد يستقوي بدوره . هناك قانون عام ، عثرنا على أولى تطبيقاته ونصوغها هكذا : عندما ينبثق أثر هزلي من سبب ما ، يبدو لنا الأثر هزلياً أكثر كلما بدا لنا السبب أقرب الى الطبيعة . إننا هنا نضحك من السهو الذي يُعرض علينا كمجرد واقع بسيط . ويكون أكثر إضحاكاً السهو الذي شاهدناه يولد ويكبر أمام أعيننا ، والذي نعرف أصله والذي نستطيع أن نعيد تكوين تاريخه . نفترض إذاً ، لكي نأخذ مثلاً دقيقاً ، أن شخصاً جعل من روايات الحب أو من روايات الفروسية مطالعته المعتادة . فهو مجذوب ، مأخوذ بأبطالها ، إنه يصرف اليهم ، تدريجياً ، فكره واراادته . ها هو يتجول بيننا كالسائر في نومه : أعماله أعمال سهو وشرود . إلا أن كل هذا الدهول والشرود يرتبط بسبب معروف وإيجابي . إنه لا يشكل تماماً وببساطة ، حالات غياب ؛ إن هذه الحالات تفسر بوجود الشخصية في

وسط محدد معروف ، وإن كانَّ خيالياً . لا شك أن السقطة هي دائماً سقطة ، ولكن الاستسلام للسقوط في بئر ، لأننا ننظر كيفما كان ، بعيداً ، يختلف تماماً عن السقوط فيه فيما نحن نصوب نظراً نحو نجم ، إن دون كيشوت كان يتأمل النجمة . أيُّ عمق في الهزل هو عمق الخيال الحالم ، والفكر الوهمي ! ومع ذلك ، إذا حللنا فكرة السهو والسرحان التي يجب أن تستخدم كوسيط ، نجد هذا الهزل العميق جداً يتصل بالهزل الأكثر سطحية . نعم : إن هذه العقول الأوهامية ، هؤلاء المجذوبين ، هؤلاء المجانين العاقلين بشكل غريب يضحكوننا بتحريك نفس الأوتار فينا ، بتشغيل نفس الأوالية الداخلية ، كما تفعل ضحية مهزلة مفتعلة ، أو كما يفعل المار الذي يزحط في الشارع . إنهم هم أيضاً ، الراكضون الذين يقعون ، والبسطاء الذين يخدعون ، إنهم الراكضون وراء المثال الاسمي ، والذين يعثرون فوق حقائق الواقع ، انهم الحالمون السذج الذين تترصد لهم الحياة بخبث . ولكنهم - بشكل خاص - الساهمون السارحون الكبار ، الذين يمتازون عن الآخرين بأن شرودهم منهجي ، منظم يدور حول فكرة مركزية - وإن سوء حظوظهم مترابطة تماماً ، مترابطة بهذا المنطق الذي لا يُدخض ، والذي يطبقه الواقع من أجل تصحيح الحلم - والذين يثيرون بالتالي حولهم ، بمفاعيل قادرة على التراكم بعضها فوق بعض ، الضحك الذي يتزايد بدون حدود .

لنقدم الآن خطوة أكثر . ألا تشكل بعض العيوب بالنسبة الى الشخصية ، ما يشكله تصلب الفكرة الجامدة بالنسبة الى العقل ؟ إن العيب ، وهو عادة سيئة من عادات الطبيعة أو هو تصلب وتحشب في الإرادة ، يشبه في الغالب حالة من حالات ضعف النفس . لا شك أن هناك عيوباً تسكن إليها النفس بعمق ، مع كل ما يكمن فيها أي النفس من قوة مُخصَّبة ، فتجرها (النفس) ، بعد أن تبعث فيها الحياة ، ضمن دائرة متحركة من التغيرات .

إن هذه العيوب هي عيوب مأسوية . ولكن العيب الذي يجعلنا هزليين مضحكين هو ، بالعكس ، العيب الذي يُقدِّم إلينا من خارج كإطار جاهز ندخل فيه بأنفسنا ، إنه يفرض علينا قسوته وتصلبه ، بدل أن يستعير منا ليونتنا . نحن لا نُعقِّدُه : إنه هو الذي يُبسطنا . وهنا يكمن ، على ما يبدو ، - كما سنحاول أن نثبت ذلك بالتفصيل في القسم الأخير من هذه الدراسة - الفرق الأساسي بين الكوميديا [المهزلة] والمأساة (الدراما) . فالدراما ، حتى عندما تصور لنا الأهواء أو العيوب التي تحمل إسماً ، تدمجها ، تماماً وكمالاً بالشخص بحيث ينسى الناس أسماءها ، وبحيث تُمحي صفاتها العامة ؛ وإننا لا نعود نفكر بهذه العيوب ، بل بالشخص الذي تجسدت فيه ؛ ولهذا فإن عنوان مطلق دراما قلماً يمكن أن يكون إلا إسماءً علمياً . وبالعكس فإن الكثير من الكوميديا يحمل إسماءً عاماً مشتركاً : البخيل ، المقامر ، [لاعب القمار] ، الخ . وإذا سألتك أن تتخيل قطعة [مسرحية] يمكن أن تسمى « الغيور » ، مثلاً فإنك ترى أن ساغانارل [شخصية من شخصيات مولير يمثل الذكاء الشعبي] يخطر ببالك ، أو جورج داندن [كوميديا نثرية لمولير ، 1668] وليس أوتلو [عطيل : دراما من خمسة فصول لشكسبير ، 1603] ؛ إن الغيور لا يمكن أن يكون إلا عنواناً لكوميديا . ذلك أن العيب الهازل مهما اتحد بحميمية ووثوق بالأشخاص ، فإنه يظل ، رغم كل شيء ، يحتفظ بوجوده المستقل البسيط ؛ انه [أي العيب الهازل] يبقى الشخصية المركزية ، اللامرئية والحاضرة ، التي بها تتعلق شخصيات اللحم والعظم ، في المشهد . وقد يعبت أحياناً فيقودها بثقله ، ويدحرجها معه ، على طول المنحدر . ولكنه ، في أغلب الأحيان ، يتلاعب بها كما لو كانت آلة ، أو هوياناور بها كما لو كانت دمي بشرية الصورة . وأنظر عن قرب : سوف ترى أن فن الشاعر الهزلي يقوم على تعريفنا تماماً بهذا العيب . وعلى إدجالنا ، نحن المشاهدين ، في حميميته ، الى درجة أننا نأخذ عنه بعض خيوط الدمية العروسة التي

يلعبها ؛ وعندها نلعب أيضاً بدورنا ؛ أن قسماً من لذتنا يأتي من هذا . وإذا ،
هنا أيضاً ، يوجد نوع من الأوتوماتية التي تحملنا على الضحك ، وإنها أيضاً .
أوتوماتية قريبة جداً من السهو البسيط .

يكفي ، للاقتناع بهذا ، أن نلاحظ أن شخصية هزلية تكون عموماً
هزلية ، ضمن القياس الدقيق الذي فيه تنسى نفسها ، إن الهزل هو « لا
وعي » . وكما لو كان يستعمل عكسياً ، بالقلوب حلقة جيغس (Gygès)
[ملك ليديا 652-687 . تقول الاساطير أن هذه الحلقة تجعله لا يرى]
فيختفي أمام نفسه ، فلا يراها في حين يراه كل الناس . إن مطلق شخص في
أية تراجيديا ، لا يغير شيئاً في سلوكه لأنه يعرف كيف سنحكم على هذا
السلوك ، فهو يستطيع أن يستمر فيها ، حتى لو وعى تماماً حاله وما هو فيه ،
حتى مع شعوره الواضح جداً بالرعب الذي يوحيه إلينا . ولكن صاحب
العيب السخيف ، منذ شعوره بأنه سخيف ، يحاول أن يغير وأن يبدل في
ذاته ، على الأقل في الظاهر . لورآنا هارباغون [بطل كوميديا لموليير اسمها
البخيل] نضحك من شحه ، لا أقول أنه يصلح نفسه ، ولكنه لا يظهره
أمامنا كاملاً أو أنه يظهره بشكل مختلف . ولنقل ذلك ، منذ الآن ، إن
الضحك بهذا المعنى ، خاصة ، « يهذب الاخلاق والاداب » . انه يعمل على
حملنا ، في الحال ، على التظاهر بما يجب أن نكون عليه ، بما سوف ننتهي اليه
حقاً في يوم من الأيام ، وبالتأكيد .

من غير المجدي ، السير بهذا التحليل إلى أبعد من هذا الآن . فمن
الراكض الذي يقع الى الساذج الذي يُخدع ومن الخداع والمخاتلة الى السهو
والسرود ومن السهو الى الإثارة ومن الإثارة الى مختلف تشويهاات الارادة
والشخصية ، تتبّعنا التقدم الذي به يندمج الهزل عميقاً في الشخص ، دون
أن ينسى ، مع ذلك ، أن يذكرنا ، في مظهره الأكثر رهافة ، بشيء مما نشاهده

نحن في أشكاله الأكثر خشونة ، إنه يذكرنا بأثر من آثار الأوتوماتية واليوسية . إننا نستطيع الآن الحصول على رؤية أولى ، أخذت من بعيد جداً ، - وهذا حق - رؤية غامضة ومبهمة ، عن الجانب المضحك في الطبيعة البشرية وعن الوظيفة العادية للمضحك .

إن ما تتطلبه الحياة والمجتمع من كل منا ، هو الانتباه الدائم الذي يحدد أطر الوضع الراهن ، وهو أيضاً نوع من المرونة والليونة في الجسم وفي الفكر . مرونة تمكننا من التكيف مع هذا الوضع . التوتر والمرونة هما قوتان تكمل إحداها الأخرى وتقتضيهما الحياة . فإذا فقدنا من الجسد ؟ تتالت الحوادث من كل نوع ، والعاهات والمرض . وإذا انعدمتا من الفكر ؟ تراكمت كل درجات الفقر السيكولوجي ، وكل أشكال الجنون . وإذا خلت منها الشخصية أخيراً ؟ حصلت حالات عدم التكيف العميقة مع الحياة الاجتماعية ، وهي حالات تولد البؤس وتسبب أحياناً بالجريمة . فإذا استبعدت هذه النقائص التي تتعارض مع جدية الوجود (وهي تتجه لأن يلغي بعضها بعضاً ، ضمن ما سمي بالصراع من أجل الحياة) ، فإن الشخص يستطيع أن يعيش ، وأن يعيش حياة مشتركة مع أشخاص آخرين . ولكن المجتمع يتطلب شيئاً آخر أيضاً . لا يكفي فيه العيش . إنه يتمسك بأن يعيش جيداً . والشيء الذي يخشى منه على المجتمع ، هو أن كلاً منا وقد رضى بأن يهتم وينتبه لما هو أساسي في الحياة ، أن يستسلم في كل ما تبقى للأوتوماتية السهلة أوتوماتية العادات المكتسبة .

إن ما يجب أن يخشاه المجتمع أيضاً هو أن يكتفي أعضاؤه - الذين يؤلفونه ، بدلاً من استهداف توازن أكثر فأكثر دقة ، في الارادات التي تندمج أكثر فأكثر تماماً بعضها ببعض - باحترام الشروط الركيزية لهذا التوازن . فالاتفاق

الجاهز تماماً بين الأشخاص لا يكفي [المجتمع] ، إنه يفرض ويريد جهداً ثابتاً ودائماً من أجل التكيف المتبادل .

كل جهود وتصلب في الشخصية ، وفي الفكر ، وحتى في الجسد ، سيكون مشبوهاً بالنسبة الى المجتمع ، لأنه الدلالة الممكنة على نشاط يخبو وأيضاً على نشاط ينعزل ، وينحو نحو الابتعاد عن المركز المشترك الذي حوله يدور المجتمع ، إنه أخيراً دلالة على التجاوز على الانحراف . ومع ذلك فالمجتمع لا يمكنه أن يتدخل هنا بفعل القمع المادي ، لأنه لم يُصَبْ مادياً . إنه في مواجهة شيءٍ يقلقه ، إنما كمؤشرٍ فقط ، - بالكاد تهديد ، وفي المحصلة ، إشارة . وإذا فجوابه يكون عليها بالإشارة أيضاً . والضحك يجب أن يكون شيئاً من هذا النوع ، نوعاً من الإشارة الاجتماعية . فالضحك ، بفعل ما يوحيه من ترهيب ، يقمع الخروج أو الشذوذ ، ويحفز بصورة دائمة ، وباتصال متبادل ، بعض النشاطات الاستلحاقية من حيث مرتبتها والتي توشك أن تُعزَل وأن تنام ؛ وهويلين أخيراً كل ما يتبقى من تصلب ميكانيكي فوق سطح الجسد الاجتماعي . إن الضحك لا يدخل إذن في مجال الجمالية الخالصة ، لأنه يلاحق ، (بشكلٍ لا واعٍ وحتى غير أخلاقي ، في كثير من الحالات الخاصة) ، هدفاً نافعاً في مجال الأكمال العام . ومع ذلك ففيه شيء من الجمالية ، لأن الهزل ينشأ في اللحظة الدقيقة التي يشرع فيها المجتمع والشخص - المتحررين من همِّ الاحتماء والمحافظة ، على نفسيهما - في معاملة ذاتيهما وكأنهما تحف من التحف الفنية . وبكلمة واحدة ، إذا رسمنا دائرة حول الأعمال والاستعدادات التي تخرب الحياة الفردية أو الاجتماعية ، والتي تهذب ذاتها بفعل عواقبها الطبيعية ، فإنه يبقى - خارج هذه الساحة ، ساحة الانفعال والصراع ، في منطقة حيادية حيث يقدم الانسان نفسه للانسان الآخر ، كمشهد - يبقى هناك تصلب ما في الجسد ، وفي الفكر وفي

الشخصية ، تصلب يريد المجتمع استبعاده أيضاً لكي يحصل من أعضائه ، على أكبر قدر من المرونة ، وعلى أكبر قدر ممكن من اللطافة الاجتماعية والألفة . هذا التصلب هو الهزل والضحك هو العقاب عليه .

ومع ذلك فلنحرص على أن لا نطلب من هذه الصيغة البسيطة تفسيراً مباشراً لكل المفاعيل الهزلية . إن هذه الصيغة تلائم من غير شك حالات بدائية ، نظرية ، كاملة ، حيث يكون الهزل نقياً من كل شائبة . ولكننا نريد بشكل خاص أن نجعل منها لازمة ترافق كل تفسيراتنا ويجب التفكير فيها دائماً ، إنما دون التركيز عليها كثيراً ، - كما يفعل تقريباً لاعب الشيش الماهر حين يفكر بالحركات المتقطعة أثناء الدرس ، في حين يسترسل جسده في استمرارية الهجوم . الآن ، سنحاول أن نعيد استمرارية الأشكال الهزلية ، بمسكين بالخيط الذي يربط بين حركات المهرج والألاعيب الأكثر رهافة في الكوميديا ، متبعين هذا الخيط في المنحنيات غير المرتقبة في أغلب الأحيان ، متوقفين ، من بعدٍ إلى بعدٍ ، لننظر حولنا ، صاعدين أخيراً ، ان أمكننا ذلك ، الى النقطة التي ينقطع فيها الخيط ، وحيث ربما تظهر لنا العلاقة العامة بين الفن والحياة - لأن الهزل يتأرجح بين الحياة والفن .

III

نبدأ بالابسط . ما هي الهيئة المضحكة الهزلية ؟ من أين يأتي التعبير المضحك في الوجه ؟ وماذا يميز هنا الهزلي عن البشع ؟ إن طرح السؤال بهذا الشكل قلماً يمكن حله إلا بصورة تحكيمية عشوائية . فهو مهما بدا بسيطاً ، فإنه في الأساس دقيق للغاية بحيث يستحيل استيعابه لأول وهلة . لذا يتوجب البدء بتعريف البشاعة ، ثم البحث عن ما يضيفه الهزل إليها : ولكن البشاعة

ليست أسهل تحليلاً ، بكثير ، من الجمال . ولكننا سنحاول ذلك منطلقين من حيلة نستخدمها كثيراً . سوف نكثف المشكلة ، كما يقال ، فنكبر الأثر حتى نبرز للعيان السبب . فلنجعل إذًا البشاعة خطيرة ، ولندفع بها الى التشويه ، ولنتظر كيف نتقل من التشويه الى المضحك المثير للسخرية .

من المسلم به أن لبعض التشويهات على الأخريات الامتياز المحزن ، إنها تستطيع ، في بعض الحالات ، أن تستثير الضحك . ومن غير المجدي الدخول في التفصيل . لنسأل القارئ فقط أن يستعرض التشويهات المتنوعة ، ثم تقسيمها الى مجموعتين ، من جهة ، التشويهات التي وجهتها الطبيعة ناحية الاضحاك ، ومن جهة أخرى التشويهات التي تتنافى معها إطلاقاً . ونعتقد أن القارئ سوف ينتهي الى استخلاص القانون التالي : كل تشويه يمكن لشخص سوي الشكل أن يقلده يمكن أن يكون موضوع هزل .

وعندها ألا يحدث الأحذب نفس مفعول الرجل الذي يقف وقفة قبيحة ؟ إن ظهره قد اتخذ انحناءً قبيحاً . ويفعل العناد المادي ، ويفعل التصلب ، فإنه يستمر في العادة المتخذة . حاول أن تبصر بعينك فقط . أمح المكتسب ؛ إذهب للبحث عن الانطباع الساذج ، المباشر الأصلي . انها بالتأكيد رؤية من هذا النوع تلك التي تمسك بها . سيكون أمامك رجل أراد أن يتيسر في وضع ما ، وإذا أمكننا القول هكذا : إنه أراد لجسده أن يتشوه وأن يكسر .

ولنعد الآن الى النقطة التي أردنا توضيحها . إن تخفيف البشاعة المضحكة يوصلنا الى القبح الهزلي . وإذا ، إن التعبير المضحك ، في الوجه ، هو التعبير الذي يذكرنا بشيء متيسر متجمد ، - إن أمكن القول ، - داخل حركية الهيئة . إنها « الصنعة » المترسخة ، والتكشيرة الثابتة ، هذا ما نراه فيه . هل نقول أن كل تعبير معتاد في الوجه ، حتى ولو كان محبباً وجميلاً يعطينا هذا الانطباع بالذات عن انشاء (طعجة) مكتسب الى الأبد ؟ ولكن يوجد هنا

تميز مهم يجب القيام به . عندما نتكلم عن جمال وحتى عن قبح معبرين ، عندما نقول أن وجهاً فيه تعبير ، فإنما نقصد - ربما - التعبير المستقر ، الذي توقعناه متحركاً وإن كان يحتفظ ، في ثبوتيته ، بتردد ترتسم فيه بغموض كل فروقات حالة النفس : فروقاتٍ ممكنة يُظهرها التعبير : ومنها ، الوعود الخيرة الحارة اليومية التي تتنفس في بعض الصبحيات الندية في الربيع .

ولكنّ تعبيراً هزلياً للوجه هو التعبير الذي لا يَعْدُ بشيءٍ لَن يعطيه . إنه تقطيب وحيد ونهائي . حتى ليقال ان كل الحياة الأخلاقية في الشخص قد تبلورت في هذا النظام .

ولهذا يكون الوجه أكثر هزلية كلما أوحى لنا ، بصورة أفضل ، بفكرة نوعٍ عملٍ بسيطٍ ، ميكانيكيٍّ ، حيث تُمتصُّ الشخصية وإلى الأبد . هناك وجوه تبدو مشغولة بالبكاء دائماً ، وأخرى مشغولة بالضحك أو بالصفير ، وأخرى تنفخ أبداً في بوقٍ خيالي ، إنها الوجوه الأكثر هزلاً بين كل الوجوه . وهنا أيضاً يتحقق القانون القائل بأن المفعول يزداد هزليّة كلما شرحنا سببه بصورة أكثر طبيعية . فالأوتوماتية ، والتصلب ، والتغضن المكتسب ، هذا هو الشيء الذي يجعل الهيئة تضحكنا . ولكن هذا المفعول يكتسب زخماً ، عندما نستطيع أن نربط هذه الصفات بسبب عميق ، بنوع من الشرود أو السهو أساسي في الشخص ، كما لو أن النفس قد استسلمت للافتتان ، وللتنويم المغناطيسي ، بفعل مادية عمل بسيط .

عندها يفهم الهزل في الكاريكاتور أو الرسم الهزلي . ومهما بدا الوجه منسجم الأسارير طري الحركات ، افتراضاً ، فإن التوازن لا يكمل إطلاقاً . إننا نعثر دائماً فيه على بداية تغضن يوشك أن يظهر ، وعلى شبه تكشيرة ممكنة ، وأخيراً على تشويهٍ مفضلٍ حيث تحتال الطبيعة بصورة أفضل . إن فن الكاريكاتور يقوم على التقاط هذه الحركة غير المرئية أحياناً وجعلها مرئية أمام

كل الأعين وذلك بتكبيرها . إنه يجعل نماذجه تكشر كما تكشر بذاتها إن هي سارت في تكشيرها إلى نهايته . وهو يكشف ، تحت الانسجيمات السطحية في الشكل ، حالات العصيان العميق في المادة . وهو يبرز التناقضات والتشويشات التي وجدت في الطبيعة في حالة الكمون ، ولكنها لم تستطع البروز ، فكبتت بقوة أفضل . ان فن الكاريكاتور المتسم بنوع من الشيطنة ، يكشف عن الشيطان الذي دفنه الملاك ، لا شك أنه فن يبالغ ولكننا نسيء تعريفه عندما نجعل هدفه الوحيد المبالغة ؛ إذ توجد صور كاريكاتورية أكثر أمانة من الصور الحقيقية ، صور كاريكاتورية تبدو المبالغة فيها شبه معدومة ، وبالعكس قد تُوجَدُ المبالغة الى حد الاسراف دون الحصول على أثر حقيقي للكاريكاتور . ولكي تكون المبالغة هزلية ، يجب أن لا تظهر كهدف بذاتها ، بل كوسيلة بسيطة يستخدمها الرسام لكي تُبرزَ أمام أعيننا ، الالتواءات التي يراها تستعد وتتهيا في الطبيعة . إن هذا الالتواء هو المهم ، وهو الذي يثير الاهتمام . ولهذا يتم السعي اليه والتفتيش عنه حتى ضمن عناصر الهيئة التي تقدر على الحركة ، حتى في إنحناء الأنف وحتى في شكل الأذن . ذلك أن الشكل هو بالنسبة إلينا رسمة حركة . إن راسم الكاريكاتور الذي يشوه حجم الأنف ، ولكنه يحترم صيغته ، الذي يطيله مثلاً ، في الاتجاه الذي تطيله فيه الطبيعة ، يجعل هذا الأنف وكأنه يكشر حقاً : وبعدها يبدو الأصل ، هو أيضاً وكأنه أراد الاستطالة وأراد التكشير . بهذا المعنى ، يمكن القول أن الطبيعة تحصل في أغلب الأحيان ، بنفسها ، على نجاحات كنجاحات راسم الكاريكاتور . ففي الحركة التي شقت فيها الطبيعة ، هذا الفم ، وضيق هذا الذقن ، ونفخت هذا الخد تبدو وكأنها نجحت في الذهاب الى أقصى حدود التكشير ، خادعة الرقابة الاعتدالية لقوة أكثر تعقلاً . ونضحك عندئذٍ من وجه هو بذاته ، ان أمكن القول ، كاريكاتور ذاته .

وخلاصة القول ، مهما كانت العقيدة التي ينتمي إليها عقلنا ، تبقى لخيالنا

فلسفته المحددة تماماً : في كل شكلٍ بشري يرى خيالنا جهد نفس تقولب المادة ، نفسٍ متناهية الليونة ، خالدة التحرك لا تخضع للجاذبية الأرضية لأن الأرض ليست هي التي تجذبها . وتعطي هذه النفس من خفتها المجنحة شيئاً ما للجسد الذي تحركه : إن اللامادية التي تنتقل هكذا الى المادة هي ما نسميه بالطاقة . ولكن المادة تقاوم وتعاند . إنها تشد الى نفسها ، إنها تريد أن تُردَّ الى جُهوديتها الذاتية ، وان تخلق الأوتوماتية في هذا النشاط الدائم اليقظة الموجود في هذا المبدأ الأسمى الذي هو الطاقة . إنها تريد تثبيت الحركات بذكاء ، حركات الجسد المتنوعة ، وبشكل ثانياً متقبضة ببلادة ، وتريد أن تجمد ، بشكل تكثيرات مستديمة ، التعابير المتحركة في الهيئة ، وتريد أن تعطي أخيراً لكل الشخص وضعاً بحيث يبدو وكأنه مستغرق في مادية نوعٍ من الاحتلال الميكانيكي بدل التجدد الدائم عند ملامسة مثالٍ اسمى حي . وحيث تنجح المادة بالتالي في تكثيف حياة النفس ظاهرياً ، وتنجح في تجميد الحركة ، ومعاكسة لطاقتها ، فإنها تحصل من الجسد على أثر هزلي . وإذا أردنا هنا تحديد الهزلي بتقريبه من ضده يتوجب معارضته بالطاقة أكثر من مقارنته بالجمال . إن الهزل هو أقرب إلى أن يكون تصلباً منه قبحاً وبشاعة .

IV

سوف ننتقل من الهزل في الأشكال الى الهزل في الإشارات أو الإيماءات . نعلن في الحال القانون الذي يبدو لنا وكأنه يتحكم بالوقائع من هذا النوع . هذا القانون يستخلص بدون مشقة من الاعتبار التي سبق وقرأناها .

« تكون الأوضاع ، والاشارات وحركات الجسم البشري مضحكة بمقدار ما يذكرنا هذا الجسم بالميكانيكية المجردة البسيطة » .

نحن لن نتبع هذا القانون في تفصيل تطبيقاته الآنية المباشرة . لأنها لا تعد . ومن أجل التثبت منه مباشرة تكفي دراسة - عن قرب - عمل الرسامين الهزليين ، مستبعدين الناحية الكاريكاتورية ، التي أعطينا عنها تفسيراً خاصاً ، مهملين أيضاً ناحية الهزل التي ليست من ضمن الرسم بالذات .

إذ يجب أن لا نُضِلُّ هنا ، فالهزل في الرسمة هو هزل مستعار ، يقوم الأدب بدفع نفقاته الرئيسية أي تحمل تبعاته - نريد أن نقول أن الرسام يمكن أن يستعين بذات الوقت بمؤلف نقاد ، أو بمؤلف هزلي خفيف ، وعندها يكون الضحك لا من الرسوم بمقدار ما يكون من النقد ، أو من المشهد الكوميدي المتمثل فيها . ولكن إن نحن ركزنا على الرسمة ، فإننا نجد - كما نرى - أن الرسمة تكون هزلية ، عموماً ، بمقدار ما تكون واضحة ، وأيضاً بمقدار ما تحتوي من رصانة ، ترينا الرسمة من خلالها، الإنسان بشكل دُمِّي ذات مفاصل .

ويجب أن يكون هذا الإيجاء واضحاً ، وأن نشاهد بوضوح ، وشفافية ، أوالية قابلة للتفكيك داخل الإنسان . ولكن يجب أيضاً أن يكون الإيجاء رصيناً أميناً ، وأن يكون مجمل الشخص ، حيث قد تيسر كل عضو كقطعة ميكانيكية - مستمراً بإعطائنا الاحساس بوجود كائن يعيش ويحيا . ويكون الآخر الهزلي أخذاً أكثر ، ويكون فن الرسام أكثر إبلاغاً ، كلما كانت هاتان الصورتان ، صورة الشخص ، وصورة الميكانيك ، متداخلتين إحداها في الأخرى بشكل صحيح . إن إصالة الرسام الهزلي يمكن أن تتحدد بنوع الحياة الخاص الذي يبثه الرسام في الدمية البسيطة .

ولكننا نترك جانباً التطبيقات المباشرة للمبدأ . ولا نركز هنا إلا على النتائج الأكثر بعداً . إن مشاهدة آلة ميكانيكية تعمل داخل الشخص هي شيء يبرز عبر سلسلة من المفاعيل المسلية ؛ ولكنها رؤية لخيالٍ عابر ، تضعيع في الحال ،

في الضحكة التي تثيرها . ولا بد من جهد تحليلي ومن تفكير لثببت هذه الرؤية .

نجد ، مثلاً ، عند خطيب ما ، الإشارة ، التي تنافس الكلام . فالإشارة ، تغار من الكلام ، فتركض وراء الفكرة ، وتطلب هي أيضاً أن تكون المترجم والمعبر . فليكن ؛ إنما على أن تقتصر الإشارة عندئذ ، على اللحاق بالفكرة في تفصيل تطوراتها . إن الفكر شيء يكبر ، يتبرعم وينزهر ، وينضج منذ بداية الخطاب حتى نهايته . إن الفكر لا يتوقف أبداً ، وهو لا يكرر نفسه . وإنه يتغير ويتبدل في كل لحظة ، لأن التوقف عن التغير يعني التوقف عن الحياة . وعلى الإشارة أن تحيا كما تحيا الفكرة ! . وعليها أن تقبل بالقانون الأساس في الحياة ، وهو قانون عدم التكرار إطلاقاً ! . ولكن هذه حركة من الذراع أو من الرأس ، تتكرر بذاتها ، فتبدولي وكأنها ترجع وتعود بشكل دوري . وإن لحظتها ، وإن هي كانت كافية لتحملني على الشرود والسهو ، وإن توقعتها عابرة ، وإن جاءت عندما انتظرها ، فإنني أضحك رغماً عني . لماذا ؟ لأنني أشاهد أمامي آلة ميكانيكية تعمل بشكل أوتوماتيكي . لم تعد الحياة هي التي تتحرك ، بل الأوتوماتية التي تركزت واستوطنت في الحياة وأخذت تقلد الحياة . وهذا نوع من الهزل .

ولهذا أيضاً تصبح إشارات ، لم نكن نريد أن نضحك منها ، مضحكة ، عندما يقوم شخص جديد بتقليدها . وقد جرت محاولات تفسيرية شديدة التعقيد لهذه الواقعة البسيطة جداً . ويقليل من التفكير في شأنها ، نرى أن أحوالنا النفسية تتغير من لحظة إلى لحظة ، وإذا تبعت إشاراتنا بأمانة حركاتنا الداخلية ، وإذا عاشت كما نعيش ، فإنها لا تتكرر بذاتها : وبهذا ؛ فهي تتحدى كل تقليد . ولا نبداً إذاً بأن نصبح قابلين للتقليد إلا في اللحظة التي نتوقف فيها عن أن نكون أنفسنا ذاتها . أريد أن أقول أنه ليس بالامكان تقليد

إشاراتنا إلا لما فيها من تواحد (تكرار) ميكانيكي - ومن هذا بالذات - وإلا لما فيها من غريب عن شخصيتنا الحية . إن تقليد شخص ما ، يعني استخلاص الجزء الأوتوماتيكي الذي تسرب الى شخصه بإرادته . وهذا يعني ، تحديداً ، جعله هزلياً ، وليس من الغريب أن يحمل تقليد الناس على الضحك .

ولكن ، إذا كان تقليد الاشارات أمراً مضحكاً بذاته ، فإنه يصبح أكثر إضحاكاً أيضاً عندما يحاول (التقليد) أن يعدل في اتجاه هذه الاشارات دون أن يشوهها ، ليحولها الى عملية ميكانيكية خالصة ، مثل عملية نشر الخشب مثلاً أو ضرب السندان ، أو شد خيط جرس خيالي دون كلل أو ملل . لا يعني هذا أن الابتذال والفظاظة هما جوهر الهزل (وان دخلا فيه بالتأكيد نوعاً ما) والأولى أن الاشارة المدركة تبدو بشكل صريح بين آليّة ، عندما يمكن إلحاقها بعملية بسيطة كما لو كانت ميكانيكية بالتخصيص . والإيجاء بهذا التأويل الميكانيكي يجب أن يكون أحد الأساليب المحبذة في المحاكاة الساخرة . وقد سبق واستنتجنا ذلك بصورة مسبقة . ولكن المهرجين قد استلهموها منذ زمن بعيد من غير شك .

وهكذا تنحل الأحجية الصغيرة التي اقترحها باسكال في مقطع من مقاطع « الأفكار » : « وجهان متشابهان ، أيّ منهما لا يضحك بشكل خاص ، يُضحكان معاً بسبب تشابههما » . ويقال نفس الشيء عن « إشارات خطيب ما ، إن أياً منها ليس مضحكاً بشكل خاص ولكنها تضحك بفضل تكرارها » . ذلك أن الحياة المتأججة بالحياة يجب أن لا تتكرر . وحيث يوجد تكرار ، وتشابه تام ، يُفترض وجود شيء ميكانيكي يعمل وراء الكائن الحي . حلل انطباعك تجاه وجهين يتشابهان كثيراً : تجد أنك تفكر في مثلين أو نسختين محصول عليهما عن طريق نفس القالب ، أو فكر بوسمتين لنفس الختم ، أو في نسختين من نفس الكليشه ، وفكر أخيراً في أسلوب الفبركة

الصناعية . هذا الانحراف في الحياة باتجاه الميكانيك هو هنا السبب الحقيقي للضحك .

وتكون الضحكة أكبر وأقوى بكثير أيضاً إن لم يكتف [المخرج] بأن يُقدِّم لنا ، على المسرح شخصيتين فقط ، كما هو الحال في مَثَلِ باسكال ، بل يقدم لنا عدة شخصيات ، بل أكبر عدد ممكن ، وكلهم متشابهون فيما بينهم ؛ يذهبون ويأتون ويرقصون ويتعشرون معاً ، ويأخذون بذات الوقت نفس الأوضاع ، ويؤشرون بنفس الطريقة . هذه المرة نفكر ، بوضوح بالدمى المتحركة . وتبدو لنا الخيوط اللامرئية وهي تربط الأذرع بالأذرع والسُّوق بالسُّوق ، وكل عضلة من هيئة بالعضلة المماثلة في الهيئة الأخرى : إن صلابة التوافق تجعل ليونة الأشكال متحركة بذاتها أمام أعيننا . إن كل شيء يقسو وينقلب الى ميكانيكي . ذلك هو سرُّ خدعة هذه التسلية الخشنة قليلاً ما . والذين يقومون بها لم يقرأوا ، ربما ، باسكال ، ولكنهم بالتأكيد يسيرون حتى النهاية بالفكرة التي أوحى بها نص باسكال ، وإذا كان سبب الضحك هو رؤية أثر ميكانيكي ، في الحالة الثانية ، فإنه أي السبب يجب أن يكمن أيضاً في هذا الأثر الميكانيكي ، في الحالة الأولى . إنما بشكل أكثر رهافة .

وإذا استمرينا الآن في هذا الطريق ، نشاهد بغموض نتائج أكثر فأكثر بعداً ، أكثر فأكثر أهمية أيضاً ، نتائج هذا القانون الذي سبق ووضعناه . ونحن نستشعر رؤى أكثر هروباً من الآثار الميكانيكية أيضاً ، رؤى توحى بها الأعمال المعقدة التي يقوم بها الانسان ، وليس حركاته الأكثر بساطة . إننا نحزُّ أن الخدع المعتادة في الكوميديا ، والتكرار الدوري لكلمة أو مشهد ، والقلب التناظري للدوار ، وتطور حالات اللبس الهندسية ، والكثير من الألعاب الأخرى أيضاً ، كلها يمكن أن تشتق قوتها الهزلية من نفس المصدر وهو فنُّ المهرج الذي ربما يقوم ، على تقديم تحريك يبدو ميكانيكياً ،

للأحداث البشرية ، مع الاحتفاظ لها بالمظهر الخارجي المعقول ، أي الاحتفاظ لها بالطراوة الظاهرية ؛ طراوة الحياة ، إنما يجب أن لا نستبق النتائج التي يتعين على تقدم التحليل أن يستخرجها بشكل منهجي .

V

وقبل التعمق بعيداً ، لنسترح قليلاً ونُلْقِ نظرةً عاجلةً حولنا . لقد أشرنا مسبقاً الى هذا في بداية هذا العمل : إنه لخرافي أن نستمد كل المفاعيل الهزلية من صيغة وحيدة بسيطة . الصيغة موجودة فعلاً ، بمعنى من المعاني ؛ ولكنها لا تسير بشكل منتظم . نريد أن نقول أن الاستنتاج يجب أن يتوقف من بعيد الى بعيد عن بعض الآثار المسيطرة ، وان هذه الآثار يبدو كُُلُّ منها كنماذج تصطف حولها بشكل دائري مفاعيلٌ جديدة تشبهها . وهذه المفاعيل الجديدة لا تستخلص من الصيغة ، ولكنها تبدو هزلية بفعل قرابتها الى المفاعيل التي تستنتج منها . ولنستشهد مرة أخرى بـ باسكال ، فنحدد هنا عشوائياً مسار الفكر بالمنحنى الذي درسه هذا المهندس العالم تحت اسم « الروليت » : فالخط البياني الذي ترسمه نقطة في دائرة دولا ب عندما تتقدم العربة بشكل مستقيم : هذه النقطة تدور كما الدولا ب ، ولكنها تتقدم أيضاً كما العربة . أو أيضاً التفكير بطريق طويلة في الغابة وفيها صلبان أو مفارق طرق تتخللها من بعدٍ إلى بعد : وعند كل مفترق طرق ندور حول الصليب ، ونقوم باستكشاف في الطرق الفرعية المفتوحة ، ويعدها نعود باتجاه التوجه الأول . نحن جودون عند أحد هذه المفترقات . « ميكانيك ملتصق بالحى » ، هنا صليب ب الوقوف عنده . إنه صورة مركزية منها يشع الخيال في اتجاهات مختلفة : هي هذه الاتجاهات ؟ نشاهد منها ثلاثة اتجاهات رئيسية . وسوف نتبعها إحد تلو الآخر ثم نعود الى طريقنا بخط مستقيم : [يقصد المؤلف بالطريق

الطويلة : الهزل الحق وبالطرق الفرعية مواقف الهزل بالعدوى أو بالتماس
(الترجمة) [.

1- في بادئ الأمر تحملنا هذه الرؤية للميكانيك وللحي المندمجين أحدهما
في الآخر ، - نحو الصورة الأكثر غموضاً ، صورة تصلب ما مطبق على حركية
الحياة ، في محاولة غشيمة لتتبع خيوطها ولتقليد ليونتها . وعندها نتصور كم
يكون من السهل تحويل اللباس لكي يصبح مضحكاً ومثيراً للسخرية .
ويمكن القول تقريباً أن كل موضحة يمكن أن تكون مضحكة من بعض
نواحيها . إنما ، عندما يتعلق الأمر بموضحة قائمة ، فإننا نعتادها بشكل يجعل
اللباس وكأنه يتجسد بأجسام الذين يلبسونه . إن تخيلنا لا يفصل الثياب عن
الشخص . ولا يخطر ببالنا أن نقارن أو نواجه الصلابة الجامدة في الغلاف
بالطراوة الحية الموجودة في الشيء المغلف . ويبقى الهزلي هنا في حالة كمون .
وكل ما في الأمر أنه ينجح في البروز عندما يكون التناقض الطبيعي عميقاً جداً
بين الغلاف والمغلف الى درجة أن التقارب حتى ولو كان قديماً جداً بينهما ، لا
ينجح في تثبيت اتحادهما : مثال ذلك حال القبة الطويلة الشكل : افترض
رجلاً غريب الأطوار ، يلبس اليوم وفقاً للموضحة القديمة : إن انتباهنا ينصب
على ما يسمى باللباس ، إننا نميزه بشكل مطلق عن الشخص ، فنقول أن
الشخص يتنكر (كما لو أن اللباس ، مطلق لباس ، ليس تنكرياً) ، والناحية
المضحكة في الموضحة تنتقل من الظل الى الضوء .

ونبدأ هنا في معالجة بعض الصعوبات الكبيرة التفصيلية التي يثيرها
موضوع الهزل . ومن الأسباب التي أثارث الكثير من النظريات الخاطئة أو غير
الكافية حول الضحك ، هو أن الكثير من الأشياء هي مضحكة من حيث
المبدأ دون أن تكون مضحكة في الواقع ، فقد عملت استمرارية الاستعمال
على تغطية الميزة المضحكة فيها وغشتها بغشاء . ولا بد من بتر سريع

للاستمرارية ، من فصل أو انقطاع عن الموضوعة ، حتى تنبعث وتستيقظ الميزة المضحكة . وعندها يُظنُّ أن انقطاع الاستمرارية هذا يولد الهزل ، في حين أنه يقتصر أو يعمل فقط على إبرازه لنا . ونفس الضحك ، بالفجائية ، بالتنافر ، بالخ وهما تعريفان يطبقان أيضاً على جملة من الحالات التي لا تحملنا على الضحك إطلاقاً . إن الحقيقة ليست بهذه البساطة أيضاً .

ولكن ها نحن قد وصلنا الى فكرة التمويه أو التنكر إنها تستمد قوتها الاضحائية من إنابة مستمرة ، كما سبق وبيّنا ، ولن يكون من العبث البحث عن كيفية استخدامها لهذه القوة .

لماذا نضحك من شَعْر تحول من الأسمر الى الأشقر ؟ من أين يأتي الهزل في أنفٍ أحمر ؟ ولماذا نضحك من الزنجي ؟ سؤال مخرج على ما يبدو ، لأن علماء نفس أمثال هيكس ، وكرايلين ، ولييس طرحوه على أنفسهم ، مداورةً ، وأجابوا عليه إجابات متنوعة . ومع ذلك لا أعرف إذا كانت المسألة قد حُلَّتْ أمامي ، في الشارع ، على يد عربيٍّ بسيط ، حين وصف زبونه الزنجي الجالس في عربته بأنه « لم يغتسل جيداً » . « غير مغتسل جيداً » ! الوجه الأسود يبدو أمام خيالنا وجهاً ملطخاً بالحبر أو بالشحبار . وبالتالي إن الأنف الأحمر لا يمكن أن يكون إلا أنفاً طليّ بطبقة من الدهان الأحمر . وهكذا نقل التمويه أو التنكير ، شيئاً من فضيلته الهزلية الى حالات لا تمويه فيها ، إنما يمكن أن تكون عرضة للتمويه . رأينا من لحظة ، أن اللباس المعتاد مهما كان منفصلاً عن الشخص ؛ فإنه يبدو لنا وكأنه متجسد فيه لأننا اعتدنا على رؤيتهما معاً . الآن ، مهما كان التلوين الأسود أو الأحمر من ذات الجلد : فإننا نعتبره ملتصقاً اصطناعياً به ، لأنه أثار دهشتنا .

من هنا ، والحق يقال ، سلسلة أخرى من الصعوبات بالنسبة الى نظرية الهزل . فالطرح التالي : « إن ثيابي المعتادة هي جزء من جسدي » ، هو طرح

مُحالٌ في نظر العقل . ومع ذلك يحسبه الخيال حقاً « فالأنف الأحمر ، هو أنف مدهون » ، « والزنجي هو أبيض متنكر » ، مستحيلان أيضاً بالنسبة الى العقل الذي يحاكم . ولكنها حقيقتان أكيدتان جداً ، بالنسبة الى التخيل البسيط المجرد . وإذن هناك منطق للخيال ، ليس هو منطق العقل ، الذي قد يتعارض معه أحياناً ، والذي على الفلسفة أن تحسب له حساباً ، ليس من أجل دراسة الهزل فقط ، بل أيضاً من أجل بحوث أخرى من ذات النوع . إن منطق الخيال ، يشبه منطق الحلم ، إنما حلم غير متروك لنزعة الهوى الفردي ، نظراً لأنه حلمٌ يحلمه المجتمع بأكمله . ومن أجل إعادة تكوين هذا المنطق ، لا بدّ من جهد من نوع خاص جداً ، به يمكن نزع القشرة الخارجية ، قشرة الأحكام المتراكمة تماماً ، والأفكار المترسّخة بقوة ، لمشاهدة انسياب - في داخل الذات - كانسياب بحيرة من المياه الباطنية - نوع من الاستمرارية السائلة لصور تتداخل بعضها في بعض . هذا التفسير للصور لا يتم عشوائياً . إنه يخضع لقوانين ، أو بالأحرى لعادات ، هي - بالنسبة الى الخيال - ما يشكله المنطق بالنسبة الى الفكر .

لنتبع إذن هذا المنطق الخيالي . في الحالة الخاصة التي تهمننا : إن رجلاً متنكراً يبدو هزلياً ، والرجل الذي نظنه متنكراً هو هزلي أيضاً . وبالتعميم نقول أن كل تنكر سوف يصبح هزلياً ، وليس فقط تنكر الانسان ، بل أيضاً تنكر المجتمع ، وحتى تنكر الطبيعة .

لنبدأ بالطبيعة . نضحك من كلب مقصوص الشعر نصفياً ، ومن أصيص زهور ملونة بشكل مصطنع ، ومن غابة غلفت أشجارها بالاعلانات الانتخابية ، الخ . فتش عن السبب ؛ إنك تظن أنك تفكر في حفلة تنكرية . ولكن الهزل هنا ، مخفف جداً . إنه بعيد جداً عن المصدر . فإذا أردنا تقويته ؟ فعلينا أن نصعد الى المصدر بالذات ، وردّ الصورة المشتقة ، صورة

التنكر ، إلى الصورة البدائية ، التي كانت - كما نذكر - صورة تزييف ميكانيكي للحياة . والطبيعة المزيفة ميكانيكياً ، تشكل دافعاً هزلياً بحق ، عليه يبني الخيال الجامح تغييرات وتبديلات ، مع التيقن من الحصول على نجاح مضحك جداً . وإنما نذكر المقطع المرح جداً ، مقطع « تارتاران في جبال الألب » حيث أقنع بومبار تارتاران (ومعه القارئ إلى حد ما ، أيضاً) بفكرة مفادها أن سويسراً مركبة على ماكينة - كالماكينة التي تقوم عليه بنيات الأوبرا - تستثمرها شركة تقيم فيها شلالات ، وجبال جليد وأغواراً موهمة . ونفس الدافع أيضاً ، إنما منقول بلهجة أخرى مختلفة تماماً ورد ذكره في « طُرفٌ جديدة Novel notes » للهزلي الانكليزي جيروم ك. جيروم . هناك سيدة نبيلة ، لا تريد لأعمالها الخيرية أن تسبب لها الكثير من الازعاج ، أقامت بالقرب من مسكنها ، ملحدتين من أجل أن تهديهم موهين اصطنعوا لهذه الغاية خصيصاً . إنهم أناس فقراء جعلوا سكيرين حتى تستطيع إشفاءهم من سكرهم الخ . توجد كلمات هزلية يكمن فيها هذا الدافع في حالة الرجوع البعيد ، المزوج بسذاجة مخلصة أو كاذبة ، تستخدم كمرافق له . مثلاً إن كلمة السيدة التي دعاها الفلكي كاسيني لتأتي وتشاهد كبسوف القمر ، والتي وصلت متأخرة فقالت له : « مسيو كاسيني هل يريد أن يعيد التجربة من أجلي ؟ ! » . أو هذا التعجب الذي صدر عن شخص وصفه غونديني ، وهو يصل الى مدينة فعلم بوجود بركان خامد في البضواحي فقال : « كان عندهم بركان ، وتركوه يحمدا !! » .

نتقل الى المجتمع . إننا نعيش في المجتمع وبواسطته ، ونحن لا نستطيع إلا أن نعامله ككائن حي . مضحكة تكون الصورة التي توحى لنا بفكرة مجتمع يتقنع وبالتالي توحى لنا إن أمكن القول ، بحفلة اجتماعية مقنعة وهذه الفكرة تظهر منذ أن نشاهد الشيء الجامد ، الجاهز الصنع ، المكتمل أخيراً ،

ظاهراً على وجه المجتمع الحي . إنها الصلابة أيضاً ، التي تتنافى مع الليونة الداخلية للحياة . إن الجانب الاحتفالي في الحياة الاجتماعية يجب أن يحتوي إذاً على الهزل الكامن الذي لن ينتظر إلا الفرصة لكي يظهر الى العيان . ويمكن القول أن الاحتفالات تشكل بالنسبة الى الجسم الاجتماعي ما يشكله اللباس بالنسبة الى جسم الفرد : فالاحتفالات مدينة بجديتها وخطورتها الى كونها تتماهى ، بالنسبة اليها ، مع الشيء الجدي الذي يربطه العرف بها . وهي تفقد هذه الجدية عندما يعزلها خيالنا عن هذا الشيء الجدي . بحيث إنه يكفي لكي تصبح الحفلة ، مطلق حفلة ، هزلية أن يتركز انتباهنا على ما فيها من احتفالية وأن نتناسى مادتها ، كما يقول الفلاسفة ، لكي لا نفكر إلا بشكلها . ومن غير المفيد الإصرار على هذه النقطة . إذ كل منا يعرف مقدار السهولة التي ينصب فيها الذكاء الهزلي الجارح على الأعمال الاجتماعية ذات الشكل الجامد، منذ مجرد التوزيع البسيط للجوائز وصولاً إلى « جلسة من جلسات المحاكم » . كثير من الأشكال ومن الصيغ مع ما يعادلها من أطر جاهزة يتسرب اليها الهزل بسهولة .

ولكن هنا أيضاً نركز على الهزل ونبرزه بتقريبه من منبعه . وإنطلاقاً من فكرة التنكر ، وهي فكرة مشتقة ، يجب العودة عندئذ الى الفكرة الأولية ، فكرة الأوعية أو الأوتوماتية المتراكمة فوق الحياة . إن الشكل الدقيق الموزون في كل شأن احتفالي يوحي لنا بفكرة من هذا النوع . ومنذ أن ننسى الموضوع الخطير في أية مناسبة رسمية أو في أية حفلة ، يبدو لنا المشاركون فيها وكأنهم يتحركون مثل الدمى . وحركتهم تنتظم حول جمودية الصيغة ، إنها الأوتوماتية . ولكن الأوتوماتية الكاملة تكون مثلاً كأوتوماتية الموظف الذي يعمل وكأنه آلة مجردة ، أو تكون أيضاً اللاوعي في نظام إداري يطبق بدقة حتمية ثابتة لا تتغير بحيث يظن أنه قانون من قوانين الطبيعة . منذ سنوات

سبقت ، غرقت سفينة قرب شواطئ ديب - ونجا بعض الركاب بصعوبة في قارب . وأخذ رجال الجمرك الذين هبوا بشجاعة لنجدة الركاب « يسألونهم هل لديهم شيء يصرحون به أمام الجمرك » . وأجد شيئاً من هذا - وإن بدت الفكرة أكثر لطافة - في كلمة ألقى بها نائب عند استجوابه لوزير في اليوم التالي من وقوع جريمة ارتكبت في أحد القطارات : « ان القاتل ، بعد أن أجهز على ضحيته ، نزل من القطار بعكس الطريق مخالفاً بذلك الأنظمة الإدارية » . إن مطلق أوالية مدموجة في الطبيعة ، ومطلق تنظيم أوتوماتيكي للمجتمع هما بالاجمال نمطا المفاعيل المسلية التي ننتهي اليها . ويبقى أماننا ، في الخلاصة ، أن ندمجها معاً ثم نرى ما ينتج عنها .

إن نتيجة الدمج تكون بالتأكيد فكرة تنظيم بشري يحل محل قوانين الطبيعة بالذات . ونذكر جواب سغاناريل⁽¹⁾ الى جيرونت عندما ذكره هذا الأخير أن القلب هو في الجنب الأيسر وان الكبد في الجنب الأيمن : « نعم كان هذا صحيحاً في الماضي ولكننا غيّرنا كل شيء ، ونحن نقوم الآن بالطبابة وفقاً لمنهج جديد تماماً » . ونذكر تشاور طبيبي م . دي بورسونياك : « إن التحليل العقلي الذي قمتم به علمي جداً وجميل جداً حتى أنه يستحيل على المريض أن لا يكون مريضاً بمرض الكآبة السويدائية ؛ فإذا لم يكن مريضاً بالكآبة فإن عليه أن يصبح كذلك ، وذلك من أجل جمال الأشياء التي أدليتم بها ومن أجل صوابية التحليل الذي قمتم به » . ونستطيع أن نكثر من الأمثلة ؛ وليس أماننا الا استعراض كل الأطباء عند مولير⁽²⁾ ، الواحد بعد الآخر . ومهما بدا

(1) شخصية من شخصيات مولير تمثل الحس السليم لدى الشعب .

(2) مؤلف دراماتيكي فرنسي (1622-1673) له جملة كوميديات منها : مدرسة الأزواج ، والمتحذلقات المضحكات ، مدرسة النساء ، الحب طيب ، البخيل ، مسيو بورسونياك ، البورجوازي النبيل ، مريض الوهم . [الترجمة] .

الخيال الهزلي هنا مبالغاً به فإن الواقع قد يتجاوزه أحياناً . إن أحد الفلاسفة المعاصرين وكان مجادلاً حتى أقصى حد ، أنهى النقاش - بعد أن قيل له أن تحليلاته المستنتجة بشكل لا غبار عليه ، تدحضها التجربة ، - بالعبارة التالية البسيطة : « التجربة على خطأ » . ذلك أن فكرة تنظيم الحياة إدارياً هي أكثر شيوعاً مما نعتقد ؛ إنها تبدو طبيعية وفقاً لمنطقها ، وإن كنا قد حصلنا عليها بواسطة أسلوب إعادة التركيب . ويمكن القول أن هذه الفكرة تقدم لنا خلاصة النفاق أو الحذقة التي قلما تكون في عمقها شيئاً آخر غير الفن الطامح إلى إعادة إبراز الطبيعة .

وهكذا ، في الخلاصة يأخذ الأثر ذاته يدق ويتلطف باستمرار ، انطلاقاً من فكرة المكننة المصطنعة في الجسم البشري - إن جاز التعبير بهذا الشكل - وصولاً إلى فكرة استبدالية ، يحل فيها المصطنع محل الطبيعي . ويقوم منطق متهافت ، متهاوٍ ، يشبه كثيراً منطق الأحلام ، بنقل نفس العلاقة إلى أجواء أكثر فأكثر علواً ، بين حدين غير ماديين ؛ فيحل محل نظام إداري ينتهي - لأن يشكل بالنسبة إلى القانون الطبيعي أو الأخلاقي ، مثلاً ، ما يشكله الثوب المفصل الخالص بالنسبة إلى الجسم الحي . من الاتجاهات الثلاثة التي ننطلق منها ، تتبعنا الآن الاتجاه الأول حتى النهاية . فلنتقل إلى الاتجاه الثاني لنرى إلى أين يصل بنا .

2 - الميكانيك المأخوذ عن الأحياء : هذه هي نقطة انطلاقنا . من أين يأتي الهزل هنا ؟ من أن الجسم الحي يتصلب تصلب الآلة . إن الجسم الحي يبدو لنا وكأنه الليونة الكاملة ، والنشاط الدائم اليقظة لعنصر دائم في عمله . ولكن هذا النشاط ينتمي فعلاً إلى النفس أكثر من انتمائه إلى الجسد . إن هذا النشاط هو الجذوة الحياتية بالذات ، المشتعلة فينا بفضل مبدأ أعلى ، يظهر عبر الجسم من خلال مفعول شفاف . وعندما لا نرى في الجسم الحي إلا اللطافة

والليونة ، فذلك لأننا نهمل ما فيه من ثقل ومن مقاومة ، أي من مادة أخيراً ؛ إننا ننسى ماديته فلا نفكر إلا بحيويته ، هذه الحيوية التي ينسبها خيالنا الى مبدأ الحياة الفكرية والأخلاقية بالذات . ولكن لنفترض أن لفت أمر ما انتباهنا إلى هذه المادية في الجسم . لنفترض أن الجسم لم ينطلق من خفة المبدأ الذي يحويه ويحركه بل أصبح في نظرنا مجرد غلاف ثقل ، يضايق ؛ إنه مجرد ثقل مزعج يربط بالأرض روحاً أو نفساً تتحفز لترك التربة . عندها يصبح الجسم بالنسبة الى الروح أو النفس ما يشكله الثوب ، كما رأينا ، بالنسبة الى الجسد بالذات ، أي مادة جامدة موضوعة فوق طاقة حية . ويحدث الشعور بالهزل منذ أن يتكون لدينا شعور واضح بهذا التراكم . ويتكون لدينا الانطباع الهزلي ، بشكل خاص عندما تظهر لنا النفس متضايقة من جراء احتياجات الجسد . من جهة هناك الشخصية الأخلاقية بما فيها من طاقة ذكاء متنوع ، ومن جهة أخرى الجسم المتكرر بشكل بليد ، متدخل ، ومقاطعاً بما فيه من عناد آلي . وكلما كانت ضرورات الجسد بسيطة متكررة بشكل رتيب ، كلما برز الأثر وظهر . ولكن الأمر هنا لا يعدو أن يكون أكثر من مسألة درجة . والقانون العام في هذه الظواهرات يمكن أن يصاغ على الشكل التالي : « الهزلي هو كل عارض يستدعي اهتمامنا حول جسد شخص تكون روحانيته موضع بحث . »

لماذا نضحك من خطيب يعطس أثناء أدق لحظات خطابه ؟ من أين يأتي الهزل في هذه الجملة من الموعظة على ميت ، ذكرها فيلسوف الماني فقال : « كان فاضلاً ، وكان مبروماً » ؟ . إنها تأتي من أن انتباهنا ارتد فجأة من النفس الى الجسد . وتكثر الأمثلة من الحياة اليومية . ولكن إذا لم يشأ القارئ أن يرهق نفسه في البحث عنها ، فما عليه إلا فتح مطلق كتاب من مؤلفات لايبش [كاتب هزلي فرنسي 1815-1888] ، فهو يقع غالباً على شيء من هذا

النوع . هنا الخطيب تنقطع أجل لحظاته بسقوط سن مريض في فمه ، وهناك يوجد شخص لا يبدأ بالكلام ، دون أن يتوقف للشكوى من حذائه الضيق أو من حزامه المشدود جداً ، الخ . إن الصورة التي توحىها إلينا هذه الأمثلة هي صورة شخص يضايقه جسمه . وإذا كان الكرش الزائد مدعاة للضحك ، فذاك لأنه يذكرنا ، بدون شك بصورة من ذات النوع . وهنا أيضاً يكمن ما يجعل الحياء مثيراً للضحك في بعض الأحيان . فالخجول يمكن أن يعطي إنطباعاً عن شخص ربما يضايقه جسده فيفتش حوله عن موضع يريحه فوقه . ولهذا يحرص المؤلف المأسوي على تجنب كل ما من شأنه أن يستدعي اهتمامنا نحو المادية في إبطاله فمند تدخل الاهتمام بالجسم ، يصبح تسرب الهزل متوقعاً . ولهذا لا يشرب أبطال التراجيديا ولا يأكلون ولا يتدفأون . وحتى أنهم لا يجلسون ما أمكنهم ذلك . فالجلوس أثناء « السحبة » يعني التذكير بوجود الجسد . وقد لاحظ نابليون الذي كان سيكولوجياً في بعض ساعاته ، أن الانتقال من التراجيديا إلى الكوميديا يتم بفعل الجلوس فقط . وهذه هي كلماته حول هذا الموضوع وردت في « المذكرات غير المنشورة » التي وضعها البارون غورغود (وكان الأمر يتعلق بمقابلة مع ملكة بروسيا بعد معركة ينا) : « استقبلتني بلهجة مأسوية ، قائلة كما قالت شيمانان⁽¹⁾ : « سيدي نطلب العدالة ، نطلب العدالة ! ماكديبورغ⁽²⁾ ! وأكملت بنفس اللهجة التي ضايقتني تماماً . وأخيراً ولكي أجعلها تغير لهجتها ، رجوتها أن تجلس . لا شيء يقطع المشهد المأسوي كمثل الجلوس ؛ لأن الجلوس يحيل المأساة إلى كوميديا » .

(1) بطلة تراجيديا كورناي : « ألسيذ » صرخت بنفس الكلمات بعد أن قتل رودريك والدها (الترجمة) .

(2) مدينة ألمانية على نهر الإلب ، ضمتها بروسيا إليها سنة 1648 ؛ واستباحها الجيش الفرنسي بعد معركة ينا التي انتصر فيها نابليون انتصاراً ماحقاً (الترجمة) .

فلنوسع الآن هذه الصورة : « إن الجسم يتقدم على الروح » . ولنعممها فنحصل على شيء أكثر عمومية : « إن الشكل يطغى على العمق » ، والحرف يخاصم ويعاند الفكر » . أليست هذه هي الفكرة التي تفتعلها الكوميديا لكي توحى بها إلينا عندما تريد أن تضحكنا من مهنة ما ؟

هذه الفكرة هي التي تحمل المحامي والقاضي ، والطبيب للكلام دفاعاً عن المهنة وقدسيتها . فكأنما الصحة والعدالة شيء تافه . والأساس هو وجود أطباء ، ومحامين ، وقضاة . المهم أن تكون الأشكال الخارجية في المهنة محترمة بدقة . وهكذا حلت الوسيلة محل الغاية ، والشكل محل الأساس ، ولم تعد المهنة تصنع من أجل الجمهور ، بل الجمهور من أجل المهنة . إن الاهتمام الدائم بالشكل ، والتطبيق الآلي للقواعد يخلق هنا نوعاً من الأوتوماتية المهنية ، شبيهاً بالأوتوماتية التي تفرضها عادات الجسم على النفس ، ومضحكاً مثله . والأمثلة كثيرة ، بهذا الشأن ، في المسرح . ودونما دخول في تفاصيل البدائل والأشكال المتنوعة حول هذا الموضوع ، نذكر نصين أو ثلاثة نصوص حيث يتحدد الموضوع بالذات بكل بساطة : يقول ديافوريوس في « المريض الخيالي » (1) : « لسنا مجبرين على معالجة الناس إلا وفقاً للأصول الشكلية » . ويقول باهي في « الحب الطبيب » (1) : « من الأفضل الموت وفقاً للأصول بدلاً من النجاة مع مخالفة الأصول » . يقول ديغوناندريس في نفس الكوميديا « يتوجب دائماً الالتزام بالأصول الاجرائية ، مهما حصل » ، وقدم زميله تومس السبب لهذا فقال : « الانسان الميت ليس إلا إنساناً ميتاً ، ولكن الأصول المهمة تضر ضرراً أكيداً بكل الجسم الطبي » . وليست كلمة « يريدون » ، وان احتوت فكرة مختلفة قليلاً ، بأقل دلالة في هذا الشأن :

سرحية من مسرحيات مولير .

« الشكل الشكل ، تمسك ، بالشكل . قد يضحك إنسان من قاضٍ يلبس ثياباً قصيرة ، ولكنه يرتجف لمجرد رؤية المدعي العام في الروب : الشكل ، الشكل » .

ولكن هنا يظهر أول تطبيق لقانون يبدو أوضح أكثر فأكثر ، كلما تقدمنا في عملنا . عندما يقدم الموسيقي نغماً على آلة ، تظهر نغمات أخرى تلقائياً ، أقل رنيناً من الأولى ، ومرتبطة بها ببعض العلاقات المحددة ، وتعطيها وقعها أو طابعها حينها تنضاف إليها : إنها ، كما يقال في الفيزياء ، الهارمونيك التابعة للصوت الأساس . أولاً يمكن أن يكون الخيال الهزلي ، حتى في اختراعاته الأكثر خروجاً ، خاضعاً لقانون من نفس النوع ؟ انظروا مثلاً إلى هذه الملاحظة الهزلية : « الشكل يغلب الأساس » . إذا كانت تحليلاتنا صحيحة دقيقة فإن الشكل يجب أن يقترن بهذه التمة : الجسم يضيق الفكر ، والجسم يتغلب على الفكر . وإذا منذ أن يقدم الشاعر الهزلي النوتة (الملاحظة) الأولى ، فإنه يضيف إليها ، بشكل غريزي ولا إرادي ، النوتة الثانية . ويقول آخر انه « بثني على السخف المهني بسخف جسدي » .

عندما دخل القاضي بريدوازون إلى المسرح وهو يتمتم - ألم يكن حقاً يهيئنا ، بتمتمته بالذات ، لفهم ظاهرة التحجر الفكري التي سوف يعرض علينا مشهدها ؟ أية قرابة سرية يمكن أن تربط هذا الخلل الفيزيائي (الجسدي) بهذا النقص الأخلاقي ؟ ربما كان لا بد من أن تظهر لنا هذه الآلة القضائية بذات الوقت كآلة للكلام . وعلى كل أن أي هرمونيك آخر لا يمكن أن يكمل بصورة أفضل الصوت الأساس .

عندما يقدم لنا مولير الدكتورين المضحكين ، في « الحب الطيب » ، باهيس وماكروتون ، فإنه يجعل أحدهما يتكلم ببطء شديد ، مقطّعاً خطابه مقطّعاً مقطّعاً ، في حين يجعل الآخر يتلجلج مسرعاً في كلامه . نفس المفارقة

فلنوسع الآن هذه الصورة : « إن الجسم يتقدم على الروح » . ولنعممها فنحصل على شيء أكثر عمومية : « إن الشكل يطغى على العمق » ، والحرف يخاصم ويعاند الفكر » . أليست هذه هي الفكرة التي تفتعلها الكوميديا لكي توحى بها إلينا عندما تريد أن تضحكنا من مهنة ما ؟

هذه الفكرة هي التي تحمل المحامي والقاضي ، والطبيب للكلام دفاعاً عن المهنة وقدسيتها . فكأنما الصحة والعدالة شيء تافه . والأساس هو وجود أطباء ، ومحامين ، وقضاة . المهم أن تكون الأشكال الخارجية في المهنة محترمة بدقة . وهكذا حلت الوسيلة محل الغاية ، والشكل محل الأساس ، ولم تعد المهنة تصنع من أجل الجمهور ، بل الجمهور من أجل المهنة . إن الاهتمام الدائم بالشكل ، والتطبيق الآلي للقواعد يخلق هنا نوعاً من الأوتوماتية المهنية ، شبيهاً بالأوتوماتية التي تفرضها عادات الجسم على النفس ، ومضحكاً مثله . والأمثلة كثيرة ، بهذا الشأن ، في المسرح . ودونما دخول في تفاصيل البدائل والأشكال المتنوعة حول هذا الموضوع ، نذكر نصين أو ثلاثة نصوص حيث يتحدد الموضوع بالذات بكل بساطة : يقول ديافوريوس في « المريض الخيالي »⁽¹⁾ : « لسنا مجبرين على معالجة الناس إلا وفقاً للأصول الشكلية » . ويقول باهي في « الحب الطبيب »⁽²⁾ : « من الأفضل الموت وفقاً للأصول بدلاً من النجاة مع مخالفة الأصول » . يقول ديغوناندريس في نفس الكوميديا « يتوجب دائماً الالتزام بالأصول الاجرائية ، مهما حصل » ، وقدم زميله تومس السبب لهذا فقال : « الانسان الميت ليس إلا إنساناً ميتاً ، ولكن الأصول المهمة تضر ضرراً أكيداً بكل الجسم الطبي » . وليست كلمة « يريد وازون » ، وان احتوت فكرة مختلفة قليلاً ، بأقل دلالة في هذا الشأن :

(1) مسرحية من مسرحيات مولير .

« الشكل الشكل ، تمسك ، بالشكل . قد يضحك إنسان من قاض يلبس ثياباً قصيرة ، ولكنه يرتجف لمجرد رؤية المدعي العام في الروب : الشكل ، الشكل » .

ولكن هنا يظهر أول تطبيق لقانون يبدو أوضح أكثر فأكثر ، كلما تقدمنا في عملنا . عندما يقدم الموسيقي نغماً على آلة ، تظهر نغمات أخرى تلقائياً ، أقل رنيناً من الأولى ، ومرتبطة بها ببعض العلاقات المحددة ، وتعطيها وقعها أو طابعها حينما تنضاف إليها : إنها ، كما يقال في الفيزياء ، الهارمونيك التابعة للصوت الأساس . أولاً يمكن أن يكون الخيال الهزلي ، حتى في اختراعاته الأكثر خروجاً ، خاضعاً لقانون من نفس النوع ؟ انظروا مثلاً إلى هذه الملاحظة الهزلية : « الشكل يغلب الأساس » . إذا كانت تحليلاتنا صحيحة دقيقة فإن الشكل يجب أن يقترن بهذه التهمة : الجسم يضيق الفكر ، والجسم يتغلب على الفكر . وإذا منذ أن يقدم الشاعر الهزلي النوتة (الملاحظة) الأولى ، فإنه يضيف إليها ، بشكل غريزي ولا إرادي ، النوتة الثانية . ويقول آخر انه « بثني على السخف المهني بسخف جسدي » .

عندما دخل القاضي بريدوازون الى المسرح وهو يتمتم - ألم يكن حقاً يهيننا ، بتمتمته بالذات ، لفهم ظاهرة التحجر الفكري التي سوف يعرض علينا مشهدها ؟ أية قرابة سرية يمكن أن تربط هذا الخلل الفيزيائي (الجسدي) بهذا النقص الأخلاقي ؟ ربما كان لا بد من أن تظهر لنا هذه الآلة القضائية بذات الوقت كآلة للكلام . وعلى كل أن أي هرمونيك آخر لا يمكن أن يكمل بصورة أفضل الصوت الأساس .

عندما يقدم لنا مولير الدكتورين المضحكين ، في « الحب الطيب » ، باهيس وماكروتون ، فإنه يجعل أحدهما يتكلم ببطء شديد ، مقطّعا خطابه مقطّعا مقطّعا ، في حين يجعل الآخر يتلجلج مسرعاً في كلامه . نفس المفارقة

بين المحامين عند م. بورسونياك . حسب المعتاد في وتيرة الكلام تكمن الغرابة الجسدية المخصصة لاستكمال الهزل المهني . وحيث لم يشر المؤلف الى نقص من هذا النوع ، من النادر أن لا يعمل الممثل ، بصورة غريزية ، على تركيبه أو اختلاقه .

وإذا توجد قرابة طبيعية ، معترف بها بشكل بديهي ، بين هاتين الصورتين اللتين قربناهما من بعضهما البعض ، فإن الفكر يتجمد ضمن بعض الأشكال ، ويتيسر الجسد وفقاً لبعض العيوب . وعندما ينصرف انتباهنا عن الأساس الى الشكل ، أو عن الأدبي الى الجسدي ، فإن الانطباع يتقل الى خيالنا في الحالتين ، وفي الحالتين ، انه نفس النوع من الهزل . هنا أيضاً أردنا أن نتبع بأمانة اتجاهات طبيعياً . في حركة الخيال . هذا الاتجاه ، كما نذكره ، كان التالي من الاتجاهات المعروضة علينا انطلاقاً من فكرة مركزية . وهناك طريق ثالث وأخير يبقى مفتوحاً أمامنا . في هذا الطريق الأخير سوف نسير الآن .

3 - لنعد إذا مرة أخيرة الى صورتنا المركزية : الميكانيك الملتصق بالحي . إن الكائن الحي المقصود هنا هو الانسان ، انه شخص ما . أما الجهاز الميكانيكي ، فهو ، بالعكس ، شيء ما ، والشيء الذي يضحك إذا هو هذا التحول المؤقت ، تحول الشخص الى شيء إذا أردنا أن ننظر الى الصورة من هذه الزاوية . لنتقل عندها من الفكرة الدقيقة ، فكرة الميكانيك الى فكرة أكثر غموضاً في فكرة الأشياء عموماً . نتحصل لنا سلسلة جديدة من البصور المضحكة ، تتكون ، إن أمكن القول ، بعد تغشية اطر الصورة الأولى ، وتوصلنا الى هذا القانون الجديد : إننا نضحك في كل مرة ، نشعر فيها أن الشخص يبدو لنا وكأنه شيء .

نضحك من « سانشو بانسا » مقلوباً فوق غطاء يُقذَف به في الهواء وكأنه

طابة . نضحك من البارون منشهوسن إذا أصبح قذيفة مدفع يتجول في الفضاء . ولكن ، ربما تقدم بعض تمارين المهرجين في السيرك ، برهاناً ، أثبت ، على نفس القانون . والصحيح ، أنه من الواجب تجاوز الدعابات التي ينسجها المهرج حول موضوعه الرئيسي ، ثم الوقوف فقط عند هذا الموضوع بالذات ، أي عند الأوضاع ، وعند القفزات والحركات التي تشكل ما هو « تهريج » خالص ، في فن المهرج . لقد استطعت على دفعتين فقط أن أرصد هذا النوع من الهزل في الحالة النقية ، وفي الحالتين تحصل لي نفس الانطباع . في المرة الأولى ، كان المهرجون يروحون ويحيثون ، ويتصادمون ويقفزون وفقاً لنسق متسارع بشكل وحيد الوتيرة ، مع الحرص البادي على الالتزام بالتصعيد .

وكان انتباه الجمهور يتركز أكثر فأكثر على القفز . وبصورة تدريجية ، نسي الجمهور أنه أمام أناس من لحم وعظم . فقد خيل إليه أنه أمام كتل ما تقع وتتصادم فيما بينها . ثم أخذت الصورة تتضح . وأخذت الأشكال تستدير ، والأجسام تتدحرج وكأنها تتجمع في كرة ، وأخيراً ظهرت الصورة التي كان كل هذا المشهد ينحو إليها ، بدون وعي ، ولا شك : طابات من كاوتشوك ، مقذوفة في كل الاتجاهات تتصادم فيما بينها . - ولم يكن المشهد الثاني ، وكان أكثر خشونة أيضاً ، أقل تعلية وإيضاحاً . ظهرت شخصيتان ، برأس ضخمة ، وبجمجمة عارية تماماً . وكانا مزودين بعصي كبيرة . ومدورة أخذ كل منهما يسقط عصاه على رأس الآخر . وهنا أيضاً لوحظ وجود تدرج . عند كل ضربة متلقاة ، كانت الأجسام تبدو وكأنها تشاقل ، وتتبس مأخوذة بصلاية متزايدة . وكان الرد يأتي ، متباطئاً أكثر فأكثر ، إنما أكثر شدة وثقلًا وأعلى دويًا . وكانت الجماجم تدوي بشكل هائل في القاعة الصامتة . وأخيراً انحنى الجسمان ، قاسيين وبطيئين ، مستقيمين كالعصا . أحدهما نحو

الأخر . وتهاوت العصي للمرة الأخيرة على الرأسين بصوت كصوت المطارق الضخمة التي تقع على أعمدة من السنديان ، وكل شيء تمدد في الأرض . في هذه اللحظة بدا ، بكل وضوح ، الإيحاء الذي قصد الفنانان زرعه ، تدريجياً في خيال المشاهدين : « . . سوف نصبح ، وقد أصبحنا تماثيل من الخشب الصلب » .

إن غريزة غامضة قد تحمل أرواحاً جاهلة على استشعار بعض من أكثر النتائج لطافة في العلم النفسي . نعرف أنه بإمكاننا أن نثير لدى فردٍ منوم ، بالإيحاء البسيط ، رؤى هذيانية . فيقال له أن عصفوراً قد حط على يده ، وهو يشاهد العصفور ، وهو يراه يطير . إنما يتوجب أن يكون الإيحاء دائماً مقبولاً بمثل هذه الطاعة . وفي أكثر الأحيان لا يستطيع المنوم بث هذه الطاعة إلا تدريجياً ، بالإيحاء التدريجي . ولهذا يحصل لكثير من الأشخاص ، عندما يذهبون الى النوم أن يروا هذه الكتل الملونة ، السائلة وغير الثابتة على شكل ، تحتل حقل الرؤية ، وتتجمد بدون شكل محسوس ، كأشياء متميزة . إن الانتقال التدريجي من المبهم الى الواضح هو إذن أسلوب الإيحاء الممتاز . وأعتقد أننا نعثر عليه في عمق الكثير من الإيحاءات الهزلية ، خاصة في الهزل الخشن ، حيث يتم - ظاهرياً - أمام أعيننا تحول شخصٍ ما الى شيء . ولكن هناك وسائل أخرى أكثر أمانة ، يستعملها الشعراء مثلاً الذين ربما يرمون الى نفس الغاية ، عن غير وعي .

وبإمكاننا ، عن طريق بعض ترتيبات الإيقاع ، والقافية والسجع ، أن نهدهد خيالنا ، ثم نرده كما كان ، بأرجحةٍ منتظمة وبالتالي اعداده الى أن يتلقى بخضوع الرؤية الموحى بها . استمعوا الى هذه الأشعار لرينيار(*) وانظروا إذا كانت الصورة الهاربة « لدمية » لا تقطع حقل خيالكم :

(*) شاعر فرنسي (1655-1709) كتب « المقامر » (1696)

... وأكثر ، إنه مدين لافراد عديدين مبلغ عشرة آلاف
ليرة ، أو بولية لأنهم ، بدون انقطاع ، طيلة سنة حسب قوله ،
لُبسوه ، وأركبوه العربى ، وأدفاوه ، وخذوه ، وألبسوه القفاز
وغذوه ، وحلقوا له وأرووه ، وحملوه .

ألا تجدون شيئاً من ذات النوع في هذه المقطوعة لفيغارو(1) (رغم أن
القصد ، ربما كان إحياء صورة حيوان أكثر مما هو إحياء صورة شيء) : « أيُّ
رجلٍ هو - انه جميل ، كبير ، قصير ، شاب عجوز ، أشهب ، مرقط ،
خبيث ، حليق ، قرف ، يترصد ، يتنقب ، ويويخ ، ويتأوه بآنٍ واحد » .

بين هذه المشاهد الفجة تماماً ، وهذه الإيحاءات اللطيفة جداً ، هناك مكان
للعديد من التأثيرات المسلية ، - كل التأثيرات التي نحصل عليها عند التعبير
عن أشخاص كما لو كان الكلام يجري عن أشياء عادية . ولنقتطف مثلاً أو
مثلين من مسرح لايش ، حيث نجد منها الكثير . يتأكد م . بريشون ، حينما
يصعد الى العربى ، أنه لم ينسَ أيّاً من حقائبه . « أربعة ، خمسة ستة ، وامراتي
سبعة ، وابنتي ثمانية وأنا تسعة » .

• وهناك قطعة أخرى حيث يمتدح الأب علم ابنته بهذه الكلمات « انها تذكر
لك دون توقف كل ملوك فرنسا الذين حدثوا فعلاً » هذه العبارة « الذين
حدثوا فعلاً » ، دون أن تحول الملوك الى مجرد أشياء ، بالضبط ، تشبههم
بأحداثٍ لا بأشخاص . هذا التشبيه نذكره بمناسبة هذا المثل الأخير : ليس
من الضروري أن نذهب الى نهاية التشبيه بين الشخص والشئ . حتى يحدث

(1) فيغارو شخصية في كل من « حلاق اشبيلية » « زواج فيغارو » . و « الأم الجانية » ليومارشيه .
وهو يمثل عامة الشعب بالنسبة الى الأرستقراطية والكهنوت « لاروس الاعلام » .

الأثر المضحك . يكفي الدخول في هذا الطريق ، مع التظاهر مثلاً ، بمهاة الشخص بالوظيفة التي يمارس . ولن أذكر إلا هذه الكلمة لأحد مختير القرية في قصة لأبوت . « إن السيد المحافظ ، الذي احتفظ لنا دوماً ، بنفس العطف ، رغم أنهم غيروه عدة مرات منذ 1847 . . . » .

كل هذه العبارات صنعت بنفس النموذج . ويمكننا أن نركب منها عدداً لا حصر له ، بعد أن حصلنا على القاعدة . ولكن فن الروائي ، والمهرج الشعبي لا يقوم فقط على تركيب الكلام . الصعب هو إعطاء الكلمة قوتها الإيحائية ، أي جعلها مقبولة . ونحن لا نقبلها إلا إذا بدت لنا أو خارجة من حالة نفسية ، أو موضوعة في مكانها وإطارها الصحيح من الظروف . من ذلك اننا نعرف أن م . بريشون كان منفعلاً جداً عند قيامه بأول رحلة له . وعبرة « الذين حدثوا » هي من العبارات التي يفترض أنها ذكرت مرات كثيرة في الدروس التي سمعتها الفتاة أمام والدها ؛ إنها تذكرنا « بالتسمية » . وأخيراً إن الإعجاب بالآلة الإدارية ، يمكنه ، عند الضرورة ، أن يصل الى حد حملنا على الاعتقاد أن لا شيء يتغير في المحافظ عندما يتغير الاسم وان الوظيفة تتم بصورة مستقلة عن الموظف .

ها نحن قد بعُدنا كثيراً عن السبب الأساس في الضحك . إن هذا الشكل الهزلي ، المستعصي على التفسير بذاته ، لا يُفهم فعلاً إلا بمقارنته بشكل آخر ، يضحكننا إلا لقرباه من شكل ثالث ، وهكذا دواليك ولمدة طويلة جداً : حيث أن التحليل النفسي ، مهما كان واضحاً ومهما كان مقنعاً ، بالافتراض ، يَفضِلُ بالضرورة ان لم يمسك بالخيط الذي قاد الانطباع الهزلي من طرف الى طرف آخر ، في السلسلة . من أين جاءت هذه الاستمرارية في

(O) كاتب فرنسي (1828-1885) صحفي وقصاص (ملك الجبال ؛ الرجل ذو الاذن المقطوعة ، قصة رجل شجاع) .

التقدم ؟ ما هو الضغط اذن ، وما هي الدفعة الغريبة التي دفعت بالهزل من صورة الى صورة ، بعيداً بعيداً عن نقطة المنشأ ، الى أن تجزأ وضاع بالمشابهات البعيدة إلى أقصى الحدود ؟ ثم ما هي القوة التي تفرع وتجزئ أغصان الشجرة إلى غصينات ، والجذر الى جذيرات ؟ هناك قانون حتمي يتحكم بكل طاقة حية ، مهما كان الوقت المتاح لها قصيراً . فيجعلها تغطي أكبر ما يمكنها من فضاء . ولكنها قوة حية ، تلك التي في الابداع الهزلي ، إنها نبتة فريدة تنبت بقوة على الأقسام الصخرية من التربة الاجتماعية ، بانتظار أن تتيح لها التنشئة القدرة على مزاحمة المستحضرات الأكثر رهافة في الفن .

لقد بعدنا جداً عن الفن الكبير ، - هذا حق - من خلال أمثلة الهزل التي مرت تحت أعيننا ولكننا نقرب منه أكثر فأكثر ، دون أن نصِل تماماً ، في الفصل الذي سيلي .

تحت الفن هناك البراعة والتحايل . في هذه المنطقة من البراعات ، المتوسطة الموقع بين الطبيعة والفن ، سوف ندخل الآن . إننا سنعالج الهزل عند المؤلف الهزلي وعند رجل الفكر .

الفصل الثاني

هزل الواقع وهزل الكلمات

درسنا الهزل في الأشكال وفي الحالات أو المواقف . وفي الحركات عموماً .
وعلينا الآن أن نبحث عن الهزل في الأفعال وفي الوقائع أو الأوضاع
[الخارجية] . لا نشك أن هذا النوع من الهزل نجده بسهولة في حياتنا
اليومية . وإذا كان صحيحاً أن المسرح هو تكبير وتبسيط للحياة فإن الكوميديا
يمكنها أن تقدم لنا ، حول هذه النقطة الخاصة من موضوعنا ، معلومات أفضل
 مما تقدمه الحياة الحقيقية . ربما يتوجب علينا أيضاً الإيغال في التبسيط إلى أبعد
من ذلك أيضاً والعودة إلى ذكرياتنا الأقدم ، والبحث ، في الألعاب التي كانت
تسلي الطفل ، عن الرسيمة الأولى للتركيبات التي تضحك الانسان . في
أغلب الأحيان نتكلم عن مشاعرنا المؤنسة أو المؤلة كما لو كانت قد ولدت
عتيقة ، كما لو أن كلاً منها لم يكن له تاريخه . في أغلب الأحيان ، بشكل
خاص نتجاهل ما هو صبياني ، كما يقال ، في غالبية انفعالاتنا السعيدة
المفرحة . كم من الذات الحالية تتقلص مع ذلك ، إن نحن تفحصناها عن
قرب ، بحيث لا تعود إلا ذكريات للذات مضت ! ماذا يبقى من كثير من
انفعالاتنا إن نحن رددناها إلى الشيء المحسوس فعلاً وبدقة ، وإن نحن طرحنا
منها كل ما هو ذكرى خالصة ؟ ومن يعرف أننا ، ابتداءً من سن معينة ، لن
نصبح محصنين ضد الفرح الطازج والجديد ، وما إذا كان الطف مؤنسات

الانسان الناضج هو شيء آخر غير ذكريات الطفولة المتأججة ، كنسمة عابقة يرسلها الينا ، بشكل نفحات تندر أكثر فأكثر ، ماضٍ يزداد بعداً ؟ ومهما كان الجواب على هذا السؤال الكثير العمومية ، تبقى هناك نقطة خارج نطاق الشك : وهي أنه لا يمكن أن يكون هناك انفصال وانقطاع بين لذة اللعب عند الطفل ، وبين نفس اللذة عند الانسان . إن الكوميديا هي لعبة خالصة ، لعبة تقلد الحياة . وإذا كانت ألعاب الطفل ، وهو يتعامل مع الدمى واللعبات ، فإن كل شيء يتم عن طريق الخيوط ، أليست هذه الخيوط بالذات هي التي يجب أن نعثر عليها بعد أن أذابها الاستعمال ، في الخيوط التي تربط بين أوضاع الكوميديا ؟ ننطلق إذاً من ألعاب الطفل . ولنتبع التقدم غير المحسوس الذي به يُكَبَّرُ دميّاته ، فيحييها ويردّها الى حالٍ من التردد النهائي حيث - وإن لم تنفك عن أن تكون دميّ - ، فإنها تتحول مع ذلك الى أشخاص من البشر . وهكذا نحصل على شخصيات الكوميديا . ونستطيع التثبت ، عليها ، من القانون الذي تركته لنا تحليلاتنا السابقة ، وهو قانون بواسطته نضع تعاريف للحالات التي يكون عليها المهرج الشعبي عموماً .

« يكون مضحكاً كل ترتيب للأفعال وللأحداث يوحي لنا
وهماً بأن الحياة قد دبت ضمن الترتيب الميكانيكي » .

I - العفريت ذو الزنبرك . - لقد لعبنا جميعاً في الماضي بلعبة العفريت الذي يخرج من علبة : نكبسه فيقفز . ونكبسه أكثر فيقفز أعلى . ونمعه تحت غطاءه ، وفي أغلب الأحيان يفجر كل شيء . لست أعلم إذا كانت هذه اللعبة قديمة جداً . ولكن نوع التسلية الموجودة فيها ، هو بالتأكيد قائم في كل الأزمنة . إنه الصراع بين عنادين ، أحدهما ميكانيكي خالص ، ينتهي عادة بالخضوع للآخر الذي يتسلّى به . إن الهر الذي يلعب بالفأرة ، فيتركها كل

مرة تذهب كما لو كانت زنبركاً ، ثم يوقفها جامدة بضربة من يده ، انه يوفر لنفسه تسلية من نفس النوع .

نتقل الآن الى المسرح . ونبدأ بمسرح غينيول⁽¹⁾ . عندما يتقدم المفوض الى المشهد ، فإنه يتلقى في الحال ، كقصاص ضرباً عصا تقضي عليه . ويتصب من جديد فتوقعه في الأرض ضرباً جديدة ، ويتم التكرار مجدداً فيتجدد القصاص . ووفقاً للنسق المتزن في الزنبرك الذي يمتد ويتقلص ، ينبطح المفوض وينهض ، في حين يتزايد ويكبر ضحك المشاهدين .

نذكر الآن زنبركاً أدبياً أخلاقياً : أي فكرة يُعبر عنها فتقمع ، فيُعبر عنها أيضاً بشكل موجة من الكلمات تندفع فتوقف ولكنها تنطلق دائماً . ويُجَيَّل إلينا من جديد أننا نرى قوة تعاند يقابلها عناد آخر يضربها . ولكن هذه الرؤية تفقد ماديتها ، وعندها لا نكون أمام مشهد من مشاهد غينيول ؛ إننا نشاهد كوميديا حقيقية .

إن الكثير من المشاهد الهزلية يُردُّ فعلاً إلى هذا النمط البسيط ، من ذلك مشهد مأخوذ من الزواج الاكراهي بين سغاناريل وبانكراس . والهزل كله يأتي من صراع بين فكرة سغاناريل الذي يريد أن يكره الفيلسوف على الاستماع له ، وعناد الفيلسوف ، وهو آلة حقيقية تتكلم وتعمل بصورة أوتوماتيكية . وكلما تقدم المشهد ، تنتصب صورة الشيطان ذي الزنبرك بصورة أبرز ، إلى درجة أن الشخصيات بذاتها تتبنى الحركة ، حركة سغاناريل وهو يدفع كل مرة ، بينكراس الى الكواليس . ويعود بنكراس كل مرة الى المسرح لكي يثرثر من جديد . وعندما ينجح سغاناريل في إدخال بنكراس

(1) شخصية شعبية فرنسية يعود تاريخها الى أواخر القرن الثامن عشر . وأصله من مدينة ليون . وهو يمثل العقلية الشعبية المناوئة لرجال السلطة .

وحبسه داخل المنزل (وأوشك أن أقول في عمق العلبة) يظهر من جديد وفجأة ، رأس بنكراس من الشباك المفتوح كما لو أنه يُطِيره غطاءً .

نفس لعبة المشهد في « المريض الخيالي » : ان الطب المهان يصب على إرغان ، بفم م . بورغون التهديد بكل الأمراض . وفي كل مرة ينهض ارغان عن الكنبه ، كما لو كان يريد تسكير فم بورغون ، نشاهد هذا الأخير ، يغيب لحظة ، كما لو أنه غيب في الكواليس ، ثم يعود فيظهر على المسرح ، كما لو كان يحركه زنبرك ، وعلى فمه لعنة جديدة . وتتكرر نفس الصرخة : « مسيو بورغون ! » لتملأ لحظات هذه الكوميديا الصغيرة .

فلنركز أكثر أيضاً على صورة الزنبرك الذي يتمدد ثم يتقلص ، ثم يتمدد من جديد . ولنستخرج منه الشيء الجوهرى . إننا سنحصل على وسيلة من الوسائل المعتادة في الكوميديا الكلاسيكية وهي التكرار .

من أين يأتي الهزل في تكرار كلمة على المسرح ؟ عبثاً نبحث عن نظرية في الهزل تجيبنا بشكل مُرضٍ على هذه المسألة البسيطة جداً . وتبقى المسألة بدون حل ، طالما نحن نريد الوصول الى تفسير لسمية مضحكة في هذه السمة بالذات ، معزولة عن ما توحى إلينا . إننا لن نجد في أي مكان ، ما يدل بصورة أفضل على عدم كفاية الطريقة العادية . ولكن الحقيقة أنه إذا تركنا جانباً بعض الحالات الخصوصية جداً والتي نعود إليها فيما بعد ، يتبين لنا أن تكرار كلمة لا يعتبر مثيراً للضحك بذاته . إن التكرار لا يضحكنا إلا لأنه يمثل أً من اللعبة الخصوصية بالعناصر الأدبية الأخلاقية ، لعبة ترمز بذاتها إلى بنية مادية خالصة . إنها لعبة الهر الذي يتسلق ويلعب بالفأرة ، ولعبة الطفل الذي يدفع ويدفع العفريت داخل صندوقه ، - ولكنها لعبة مهذبة ، معنوية ، نقلت الى إطار المشاعر والأفكار . والآن نصوغ القانون الذي يُعرّف ، برأينا ، الآثار الرئيسية الهزلية لتكرار الكلمات فوق خشبة المسرح :

« في التكرار الهزلي للكلمات ، تكون هناك عموماً كلمتان
موجودتان ، وشعور مضغوط يتفجر كالزنبرك وفكرة تتلهى في
ضغط الشعور من جديد » .

عندما يقص دورين⁽¹⁾ على أورغون⁽²⁾ مرض زوجته ، ويقاطعه هذا باستمرار
ليستعلم عن صحة تارتوف ، يعطينا السؤال المتكرر دائماً : « وتارتوف ؟ »
الاحساس الواضح جداً بزنبرك ينطلق . وهذا الزنبرك هو ما يحرص دورين
على دفعه تكراراً عندما يعود كل مرة إلى ذكر مرض ألمير . وعندما يأتي
سكاين⁽²⁾ ليعلن للعجوز جيرونت أن ابنه قد اقتيد إلى السجن فوق السفينة
الشهيرة ، وإن من الواجب اقتداؤه بسرعة ، فإنه كان يتلاعب بشح جيرونت
تماماً كما كان يتلاعب دورين بعمارة قلب أورغون ، فالشح ، ما إن يكتب
ويضغط ، إذ به ينطلق أوتوماتيكياً ، وهذه الأوتوماتيكية هي التي أراد مولير
إبرازها بالتكرار الآلي لجملة يُعبر فيها عن اللهفة على المال الذي يتوجب
دفعه : « يا للشيطان ماذا ذهب يفعل في هذه السفينة ؟ » . وتذكر نفس
الملاحظة في المشهد حيث يصور فالير هارباغون أنه يخطيء بزواج ابنته لرجلٍ
لا تحبه . فيُقاطعه شح هارباغون بعبارة « بدون دوة » ! . ونحن نرى عبر
هذه الكلمة التي تتكرر بصورة أوتوماتيكية ، أوالية ذات تكرار تدفع إليه
الفكرة الثابتة المترسخة .

والصحيح أحياناً أن هذه الأوالية تكون أقل بروزاً وأصعب استشفافاً .
وهنا نلامس صعوبة جديدة في نظرية الهزل . هناك حالات يتجمع فيها
الاهتمام في شخصية وحيدة تتضعف ، ويقوم فيها محاورها بدور الموشور

(1) بطلان في مسرحية تارتوف أو المناقش المتظاهر بالورع لمولير .

(2) بطل مسرحية « احتمالات سكاين » لمولير .

المجرد ، إن جاز التعبير ، وعبره يتم التضعيف . ونوشك عندها أن نضل الطريق إن نحن بحثنا عن سرّ الأثر المضحك في ما نسمع ونشاهد ، أي في المشهد الخارجي الذي تقوم به الشخصيات ، وليس في الكوميديا الداخلية التي لا يكون هذا المشهد الا انعكاساً لها . مثاله : عندما يجيب ألسست⁽¹⁾ بعناد « أنا لا أقول هذا » وهو يوجه خطابه الى أورونت الذي يسأله إذا كان يجد أشعاره سيئة ، فالتكرار مضحك ، ومع ذلك من الواضح أن أورونت لا يتلهى هنا مع ألسست باللعبة التي سبق ووصفناها منذ لحظة . إنما هنا يجب الحذر ! يوجد هنا في الواقع ، رجلان في السست ، من جهة « المتشائم » المبغض للناس الذي آلى على نفسه الآن أن يقول لهم واقعهم ، ومن جهة أخرى هناك النبيل الذي لا يستطيع ، مرة واحدة ، أن يتجاهل أشكال اللياقة ، أوحى ، ربما ببساطة ، الانسان الممتاز ، الذي يتراجع في اللحظة الحاسمة حيث يجب الانتقال من النظرية الى الفعل ، الى سر كرامة انسان ، أو إيلامه . والمشهد الحق لا يكون عندئذ بين السست وأورونت ، بل بين السست والسست بالذات ، بين هاتين الشخصيتين . توجد واحدة تريد أن تنفجر والأخرى تسكر لها فمها في اللحظة التي توشك فيها أن تقول كل شيء . إن كل واحدة من العبارات « أنا لا أقول هذا ! » تمثل جهداً متزايداً من أجل كبت شيء ما يدفع ويضغط لكي يخرج . إن اللهجة في هذه العبارات « أنا لا أقول هذا ! » تصبح أكثر فأكثر عنفاً ، لأن السست يغضب بشكل متزايد - لا ضد أورونت ، كما يُعتقد ، بل ضد نفسه . وهكذا يتنامى ضغط الزنبرك دائماً ويتجدد ، ويقوى دائماً حتى الانفجار النهائي . إن أوالية التكرار هي إذن دائماً واحدة .

أن يصل رجل الى القرار بأن لا يقول إلا ما يؤمن به حتى ولو أدى به

(1) الشخصية الرئيسية في مسرحية مولير : (الميزانثروب أو كاره البشر) .

ذلك الى « التصادم مع كل الجنس البشري » ، ان هذا ليس بالأمر الهزل
حتماً ؛ انها الحياة ، وربما أفضل الحياة . وان يقوم رجل آخر ، من لطفل في
خُلُقهِ أو بفعل الأنانية أو الاحتقار ، فيفضل أن يقول للناس ما يرضيهم ، إن
هذا هو من الحياة أيضاً ، وليس في هذا كله ما يحملنا على الضحك . وأجمع
هذين الرجلين في شخص واحد ، وتصور أن شخصيتك تتردد بين الصراحة
التي تجرح وبين تهذيب يخدع ، إن هذا الصراع بين شعورين متناقضين ،
ليس بالمضحك . بل يبدو [هذا الصراع] جدياً إذا توصل الشعوران الى
الانتظام ضمن تضادهما بالذات ، والى التقدم معاً ، والى خلق حالة نفسية
مركبة ، وأخيراً الى اعتماد تعايش واقعي ، يعطينا تماماً وكماً الشعور المعقد
بالحياة . ولكن افترض الآن ، في رجل يعيش حياته براحة ، هذين
الشعورين متناقضين وغير متهادنين ؛ وافترض أن الرجل يتأرجح بينهما ؛
وافترض ، بشكل خاص ، ان هذه الأرجحة تصبح ميكانيكية صريحة وذلك
باعتماد الشكل المعروف ، شكل جهاز معتاد ، بسيط ، طفولي : « تحصل
لك هذه المرة الصورة التي عثرنا عليها في الأشياء المضحكة ، وتحصل على
« الميكانيكية في الكائن الحي » ، وتحصل على الهزل أو المضحك .

لقد ركزنا ، نوعاً ما ، على هذه الصورة الأولى ، صورة العفريت ذي
الزنبك ، من أجل أن نُفهم كيف تقلب البراعة الهزلية ، بصورة تدريجية ،
الأولية المادية الى أولية أدبية أخلاقية . وسوف ندرس لعبة أو لعبتين
أخرين ، على أن نكتفي الآن بإشارتين مختصرتين .

2 - الدمية - الشخص ذات الخيوط - كثيرة هي المشاهد الكوميدية حيث
تعتقد شخصية ما انها تتكلم وتتصرف بحرية ، وحيث تحتفظ هذه
الشخصية ، بالتالي ، بجوهر الحياة ، في حين أنها إذا نظر إليها من زاوية ما
فإنها تبدو كمجرد لعبة بين يدي شخص آخر يتلاعب بها . من الدمية التي

يتلاعب الطفل بها بهيكل الى جيرونت وإلى آرغانت الذي يتلعب به سكاين ، تبدو المسافة سهلة القطع . والأفضل أن تستمع الى سكاين نفسه : « لقد تم العثور على الآلة تماماً » وأيضاً . « إن السماء هي التي قادتهم الى شباكي » ، الخ . وبغريزة طبيعية ، ولأننا نحب أكثر ، على الأقل في الخيال ، أن نكون خادعين لا مخدوعين ، فإن المشاهد يميل الى جهة المخاتلين ، فهو يعقد حلفاً معهم ، وبعدها - وكما الطفل الذي حصل من رفيق له ، على موافقة بأن يعيره لعبته ، فإنه يقوم هو بنفسه بتسيير الدمية ، على المسرح ، جيئةً وذهاباً ، بعد أن استلم خيوطها . وعلى كل ان هذا الشرط الأخير ليس شرطاً لازماً . فقد تبقى أيضاً خارج ما يجري تماماً ، شرط أن نحتفظ بالاحساس الواضح بوجود ترتيب ميكانيكي . وهذا ما يحصل في الحالات التي يتأرجح فيها الشخص بين أمرين متعارضين يجب الانحياز اليهما ، وكل فريق يشده اليه مرة ومرة : مثاله بانورج⁽¹⁾ وهو يسأل بياروبول إذا كان سيتزوج . ونلاحظ أن المؤلف الهزلي يحرص عندئذ على تجسيد الأمرين المتعارضين بأشخاص . فإذا انعدم وجود المشاهد ، فلا بد من ممثلين يمسون بالخيوط .

إن كل الجدية في الحياة تأتيها من حريتنا . إن الشاعر التي انضجناها ، والأهواء التي احتضناها ، والأفعال التي قلبناها ، وقررتها ونفذناها ، وأخيراً ما يصدر عنا ، وما هو ذاتنا ومالنا ، هذا ما يعطي للحياة مسارها المأسوي أحياناً والخطير عموماً . فماذا يتوجب لتحويل كل هذا الى كوميديا ؟ يتوجب تصور أن الحرية الظاهرة تغطي لعبة خيوط ، واننا هنا ، في هذه الدنيا ، كما يقول الشاعر :

(1) شخصية اخترعها رابلي الفرنسي (1494-1553) في كتابه بانتاغرويل ، فاسق ، جبان انما ذكي وهو رفيق بانتاغرويل الأمين .

.. مجرد دميات ، خيوطها بين يدي « الضرورة »

وإذاً لا يوجد مشهد حقيقي ، جدي ، بل ودراماتيكي ، لا يستطيع الخيال البارع ، تحويله الى هزلي وذلك ببعث وبث هذه الصورة البسيطة . لا توجد لعبة لها مثل هذا المجال الأوسع المفتوح .

3- كرة الثلج - ويقدر ما نتقدم في هذه الدراسة لوسائل الكوميديا ، فإننا نفهم بصورة أفضل الدور الذي تلعبه ذكريات الطفولة . إن هذه الذكريات ، ربما تتناول ، هذه أو تلك من الألعاب الخصوصية ، أقل مما تتناول الجهاز الميكانيكي الذي تعتبر اللعبة أحد تطبيقاته . إن نفس الجهاز العام يمكن أن يوجد في الألعاب المختلفة جداً ، كنفس قطعة الأوبرا في الكثير من البراعات الخيالية الموسيقية . المهم هنا ، ما الفكر يتمسك به ، ما يحصل ، بتدرج غير محسوس ، من ألعاب الطفل الى ألعاب الرجل الكبير ، هو الرسيمة ، رسيمة التركيبية ، أو إذا شئت ، الصيغة المجردة التي تعتبر هذه الألعاب تطبيقات خصوصية لها . هذه ، مثلاً ، كتلة الثلج تتدحرج ، وتكبر وهي تتدحرج . ويمكننا أيضاً تصور جنود من رصاص [بلاستيك اليوم] مصفوفين بالصف وراء بعضهم البعض : فإن دفعنا الأول فإنه يقع على الثاني ، الذي يقع الثالث ، ويستمر الوضع خطيراً الى أن ينطرح الجميع الى الأرض . أو أيضاً ، إنه قصر من كرتون محكم التركيب . فإذا لمسنا الكرتونة الأولى فإنها تتردد في السقوط ، ولكن جارتها وقد تزعزعت تسقط أسرع منها ، ويتسارع العمل التخريبي في دربه ويركض بشكل محموم نحو الكارثة الأخيرة . كل هذه الأشياء متنوعة جداً ، ولكنها توحى لنا ، إن أمكن القول ، بنفس الصورة المجردة ، صورة أثر ينتشر متزايداً فينضاف إليه ، أثر وأثر ، بحيث أن السبب ، التافه أصلاً ، يؤدي بفعل التقدم الضروري الى نتيجة مهمة بمقدار ما هي غير متوقعة . لنفتح الآن كتاب صور أطفال : سوف

نرى هذا الجهاز يتدرج لكي يتخذ شكل مشهد هزلي . (أخذت عشوائياً « سلسلة ايبنال »⁽¹⁾) : هذا زائر يدخل مسرعاً الى صالون : انه يدفع امرأة فينكب فنجائها الشاي على رجل عجوز ، فيزحط فيكسر زجاجاً يقع في الشارع على رأس رجل شرطة الأمر الذي استنفز الشرطة كلها ، الخ . ونجد نفس الترتيب في الكثير من الصور يرسم الأشخاص الكبار . في كتب « التواريخ بدون كلام » التي « يشخترها » الرسامون الهزليون ، هناك شيء ما يتنقل ويتنقل معه اشخاص ملتصقون به : ومن مشهد الى مشهد ، يؤدي تغيير موقع الشيء الى تغييرات ميكانيكية تتزايد خطورتها ، بحسب الوضع فيما بين الأشخاص . لنتنقل الآن الى الكوميديا . كم من المشاهد التهريجية ، وكم من الكوميديات بالذات تتحول الى هذا النمط البسيط . فلنجرب أن نعيد قراءة حكاية شيكانوف في « المتخاصمين » [محبي التخاصم أمام القضاء] : إنها دعاوى تتوالد من دعاوى ، والأولية تعمل بشكل متسارع (إن راسين يعطينا هذا الاحساس بتسارع متزايد ، حين يضغط أكثر فأكثر على عبارات النزاع ، ويرصها بعضها الى بعض) الى أن تكلف الدعوى المقامة من أجل حملة قش ، صاحبها تروته . نفس الترتيب نجده أيضاً في بعض مشاهد « دون كيشوت » ، مثلاً مشهد « الأوتيل » حيث يؤدي تسلسل الأحداث الغريب الفريد الى أن يضرب صاحب البغال سانشو ، الذي يصفع ماريتورن ، التي عليها ينقض صاحب الأوتيل ، الخ . نصل أخيراً الى المسرحية الهزلية الحديثة . هل من الضروري التذكير بكل الأشكال التي تدخل فيها هذه التركيبية نفسها ؟ هناك شكل شائع يستعمل في أغلب الأحيان : وهو أن شيئاً ما مادياً (رسالة مثلاً) يكون ذا أهمية كبرى بالنسبة الى

(1) عاصمة مقاطعة الفوج في فرنسا . اشتهرت بصناعة الكوتشوك ، والنساء الميكانيكي . ومركز ألعاب خيالية شعبية ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر .

بعض الشخصيات ، وانه من الواجب العثور عليه مهما كلف الثمن . هذا الشيء الذي يختفي دائماً ، في كل مرة يُظن أنه قد تم العثور عليه ، ينتقل عندئذ عبر الغرف ، وهو يتسبب في طريقه بأحداث تتزايد خطورتها ، بمقدار ما تكون غير متوقعة . إن كل هذا يتشابه ، بصورة أولى ، حتى ليخيل اليينا في بادئ الأمر أننا أمام لعبة أطفال . إنه دائماً أثر كرة الثلج .

من شأن التركيبة الميكانيكية إنها تكون عموماً قابلة للارتداد . إن الولد يأنس برؤية كرة تقذف فتصيب أوتاداً فتقلبها جميعاً في درجها مضاعفة بذلك التخريب . وهو يضحك أكثر أيضاً عندما تعود الكرة ، بعد دوران وارتداد ، وترد من كل الأنواع ، الى حيث انطلقت . ويكلام آخر ، إن الأولية التي وصفناها لتونا ، هي مضحكة عندما تكون مستقيمة ؛ وتصبح أكثر إضحاكاً عندما تصبح دائرية ، وإن جهود الشخص تنتهي ، بفعل مسننات مركبة تركيباً يؤدي بفعل السبب والأثر الحتمي ، إلى رد الكرة ، ببساطة ، إلى نفس المكان .

ولنرى أن العديد من المسرحيات الهزلية تدور حول هذه الفكرة . قبعة من قش إيطاليا أكلها حصان وهناك قبعة وحيدة مماثلة موجودة في باريس ، ومن الواجب العثور عليها . هذه القبعة التي تتراجع دائماً في اللحظة التي سيتم الإمساك بها ، تجعل الشخصية الرئيسية تركض . وهذا بدوره يجعل الآخرين يركضون متشبثين به : مثل المغناطيس يجذب وراءه ، بجذب ينتقل من قرب الى قرب ، حتاتة الحديد المتعلق بعضها ببعض . وأخيراً ، وبعد حادث يجر حادثاً ، عندما يُظن الوصول الى الهدف ، يتبين أن القبعة المبتغاة بعد مشقة ، هي ذاتها القبعة التي أكلها الحصان .

ونجد نفس الأوديسة [«الحكاية الطويلة»] في كوميديا أخرى ليست أقل شهرة وضعها لايش . في بادئ الأمر يظهر أمامنا رجل أعزب هرم وفتاة

عانس ، يلعبان بالورق كعادتهما يومياً . وهما أصدقاء منذ زمن طويل . وقد تقدما بطلبات زواج ، كلٌ على حدة ، الى نفس مؤسسة الزواج . وبعد آلاف الصعوبات والمعاكسات المتتالية ، ركضا جنباً الى جنب ، في ساحة القاعة الى اللقاء الموعد الذي وضعهما تماماً وكماًلاً وجهاً لوجه . نفس الأثر الدائري ، ونفس الرجوع الى نقطة الانطلاق ، في قاعة أكثر حداثة وجدة . زوج مضطهد ظن أنه ينجو من زوجته ومن حماته عن طريق الطلاق . وتزوج من جديد . ولكن اللعبة المحبوكية ، لعبة الطلاق والزواج تعيد اليه زوجته القديمة ، إنما مقرونة بمصيبة أكبر بحماة جديدة شكلاً .

عندما نفكر بزخم ويتواتر هذا النوع من الهزل ، نفهم أنه قد لفت خيال بعض الفلاسفة . إن بذل الجهد الكثير ، من أجل العودة ، بدون أن نعرف ، الى نقطة الانطلاق ، يعني تقديم جهد كبير من أجل نتيجة عدم . وقد نرغب بتعريف الهزل وفقاً لهذه الطريقة الأخيرة . هكذا بدت فكرة هربرت سينسر : إن الضحكة هي دلالة على جهد يلتقي فجأة الفراغ . وقد سبق لكأنت أن قال : ان الضحكة تأتي من توقع ينحل فجأة الى لا شيء . نحن نعرف ان هذه التعاريف تنطبق على أمثلتنا الأخيرة ، وانه يتوجب علينا أيضاً إدخال بعض الحصر والتضييق على صيغتها ، إذ يوجد الكثير من الجهود العديمة الفائدة والتي لا تضحك . وإذا كانت أمثلتنا الأخيرة تعرض سبباً كبيراً يؤدي الى أثر صغير ، فانا قد ذكرنا من قبل ، أمثلة غيرها يجب أن تُعرف بشكل مخالف : أثر كبير يخرج من سبب صغير . الحقيقة أن هذا التعريف الأخير قلما تكون له قيمة أكبر من الأول . والتفارق بين السبب والأثر ، ان بدا في هذا الاتجاه أو ذاك ، لا يعتبر السبب المباشر للضحك . نحن نضحك من شيء ما قد يظهره هذا التفارق في بعض الأحيان ، وأقصد الترتيب الميكانيكي الخصوصي الذي يبينه لنا هذا التفارق ، شفافاً وراء سلسلة من الآثار ومن

الأسباب . أهمل هذا الترتيب عندها تتخلل عن الخيط الموصل الوحيد الذي يمكن أن يفقدك داخل هذه المتاهة من الهزل : وعندها تبقى القاعدة التي اعتمدتها أنت والقابلة للتطبيق على بعض حالات مختارة بعناية معرضةً للإلغاء لدى مواجهتها أول مثل عارض يعترضها .

ولكن لماذا نضحك من هذا الترتيب الميكانيكي ؟ أن يبدو لنا تاريخ فرد ، أو تاريخ مجموعة ، في لحظة معينة ، كلعبة مستنات ، أو لعبة ذات زنبك أو خيوط ، إن هذا يبدو غريباً ، بدون شك ، ولكن من أين تأتي الصفة الخصوصية في هذه الغرابة ؟ ولماذا هي مضحكة ؟ على هذا السؤال الذي سبق وطرح علينا في كثير من الأشكال نقدم دائماً نفس الجواب . إن الألية اليبسة التي نعثر عليها من وقت إلى آخر ، وكأنها دخيلة على الاستمرارية الحية في الأشياء البشرية ، لها عندنا أهمية خاصة جداً لأنها تبدو كسهو في الحياة . ولو أن الأحداث تستطيع أن تكون دائماً ، وبدون توقف ، واعية لمجراها الذاتي ، فإنه لن يكون فيها مصادفات ، ولا لقاءات ، ولا سلاسل دائرية ؛ كل شيء يتدرج إلى الأمام ويتقدم باستمرار . وإذا كان الرجال متبهمين دائماً للحياة ، وإذا نحن عاودنا باستمرار الاتصال بالغير ، وبأنفسنا أيضاً ، فلا شيء على الإطلاق يبدو وكأنه يحدث فينا بفعل الزنبك أو الخيوط . إن المضحك هو هذا الجانب من الإنسان الذي يشبه فيه الإنسان شيئاً ما جامداً . إن المضحك هو هذا المظهر من التصرفات البشرية الذي يُقلد ، بتيسه تيساً من نوع خاص ، ألية خالصة بسيطة هي الأوتوماتية ، إنه يُقلد أخيراً الحركة بدون الحياة . إن المضحك يعبر إذن عن نقص فردي أو جماعي يستدعي التصحيح المباشر . إن الضحك ، هو هذا التصحيح بالذات . الضحك هو نوع من الحركة الاجتماعية يُبرز أو يجمع نوعاً من السهو الخصوصي عند الأشخاص وفي الأحداث .

ولكن هذا بالذات يدعونا الى البحث أبعد وأعلى . لقد تسلينا حتى الآن في البحث ، في ألعاب الانسان ، عن بعض التركيبات الميكانيكية التي تسلي الطفل . وكان هذا نوع عملي من التصرف . وقد حان الوقت لمحاولة استقراء منهجي وكامل ، وللذهاب الى المنبع بالذات والى المبدأ الدائم والبسيط من أجل استخلاص الوسائل المتعددة والمتنوعة في المسرح الهزلي . إن هذا المسرح كما قلنا ، يدمج الأحداث بشكل يُدخل الآلية في الأشكال الخارجية للحياة . فلنحدّد إذن السمات الأساسية التي بها تبدو الحياة ، إذا نظر اليها من الخارج ، مختلفة ومفترقة عن الأولية الوسيطة . ويكفينا عندئذ أن نتقل الى السمات المتناقضة لكي نحصل على الصيغة المجردة ، العامة هذه المرة والكاملة : صيغة وسائل الكوميديا الحقيقية والممكنة .

تبدو الحياة لنا وكأنّها تطور في الزمن ، وكأنّها نوع من التعقيد في الفضاء . إذا نظر الى الحياة من حيث الزمن ، فهي التقدم المستمر في كائن يشيخ باستمرار : وهذا يعني أنها لا تعود الى الوراء ، ولا تتكرر إطلاقاً . فإذا نظر اليها في الفضاء فإنّها تعرض أمام أعيننا عناصر متواجدة ومتماسكة فيما بينها بوثوق حميمي ، وبترابط حصري ، الى درجة أن أيّاً من هذه العناصر لا يمكن أن ينتمي بذات الوقت الى جسمين مختلفين : كل كائن حي يشكل جهازاً مغلقاً من الظاهرات غير قابل للتداخل مع أجهزة أخرى . تغير مستمر في المظهر ، لا ارتدادية في الظاهرات ، فردانية كاملة في سلسلة مغلقة بذاتها ، هذه هي السمات الخارجية (الحقيقية أو الظاهرية ، لا يهم) التي تميز الكائن الحي عن الميكانيكي الخالص . ولنأخذ من هذا نقيضه : فيحصل لدينا ثلاثة أساليب نسميها ، ان أحيت التكرار ، الارتداد ، وتداخل السلاسل . من السهل أن نرى أن هذه الأساليب هي أساليب المهزلة ، وأنه لا يمكن أن يكون خلافها .

إننا نجدها ، أول الأمر ، ممزوجة بكميات متنوعة ، في المشاهد التي استعرضناها ، وبصورة أولى في ألعاب الأطفال التي تستحدث هذه الأساليب أواليتها ، إننا لن نتأخر في القيام بهذا التحليل . ويكون من الأكثر إفادة دراسة هذه الأساليب في حالة النقاء حول أمثلة جديدة . لا شيء يكون أكثر سهولة ، إذ أننا نجدها ، بحالتها النقية في الكوميديا الكلاسيكية ، كما في المسرح المعاصر .

1 - التكرار - لم تعد المسألة ، كما منذ لحظة ، مسألة كلمة أو جملة يرددها شخص ، بل المسألة هي مسألة حالة أو وضع - أي مسألة تركيبة من الظروف ، تعود ، كما هي ، على عدة دفعات بارزة بالتالي ، من خلال المجرى المتغير للحياة . وتقدم لنا التجربة هذا النوع من الهزل ، إنما في حالة أوالية فقط . من ذلك اني التقيت ذات يوم في الشارع صديقاً لم أكن قد رأيته منذ زمن بعيد ؛ الوضع لا يتضمن أي شيء من الهزل ، ولكن ، إذا التقيته من جديد في نفس اليوم ، وأيضاً مرة ثالثة ورابعة . فإننا نضحك جميعاً من المصادفة . تصور عندها سلسلة من الأحداث الخيالية التي توحى لك بوهم الحياة ، ما يكفي ، وافترض ، داخل هذه السلسلة التي تتصاعد ، نفس المشهد يتكرر ، أما مع نفس الشخصيات ، أو مع شخصيات مختلفة : انك تحصل أيضاً على مصادفة إنما أكثر عجباً . تلك هي الاعدادات التي تُعرض علينا في المسرح . إنها تكون أكثر هزلاً كلما كان المشهد المتكرر أكثر تعقيداً ، وأيضاً كلما كان مداراً بصورة أكثر طبيعية - وهما شرطان يبدوان متناقضين ، ويتعين على مهارة المؤلف الدراماتيكي أن يوفق بينهما .

إن المهزلة المعاصرة تستخدم هذا الأسلوب بكل أشكاله . وأحد هذه الأشكال الأكثر شهرة يقوم على أخذ مجموعة من الشخصيات في نزهة ، بين فصل وفصل ، في الأوساط الأكثر تنوعاً ، بشكل يؤدي الى استحداث نفس

السلسلة من الأحداث أو المتاعب التي تتطابق بشكل تناظري ، في ظروف متجددة دوماً .

إن العديد من مسرحيات موليير تقدم لنا نفس التركيبة من الأحداث التي تتكرر من أول الكوميديا الى آخرها . من ذلك مثلاً « مدرسة النساء » فهي لا تنفك تردد وتعيد نوعاً من الأثر في ثلاثة أزمنة : الزمن الأول : يقص هوراس على آرنولوف ما تخيله لكي يخدع وليّ أنيس ، الذي يكون آرنولف بالذات ؛ الزمن التالي ، يبدو آرنولوف وكأنه تفادى الضربة ؛ الزمن الثالث ، تُحوّل أنيسُ احتراساتِ آرنولوف لصالح هوراس . ونجد نفس الترتيب المنتظم في « مدرسة الأزواج » وفي « المغفل » وخاصة في « جورج داندين » حيث نجد نفس الأثر ذي الأزمنة الثلاثة : الزمن الأول : جورج داندين يرى أن زوجته تخونه ؛ الزمن الثاني ، نادى والديها لنجدته ؛ الزمن الثالث جورج داندين هو نفسه يقدم الأعذار .

وفي بعض الأحيان ، يحدث نفس المشهد بين مجموعات من الشخصيات المختلفة . وليس من النادر عندئذٍ أن تتضمن المجموعة الأولى الاسياد أو المعلمين ، والمجموعة الثانية الخدم . ويأتي الخدم ليكرروا بلهجة مختلفة ، منقولاً بأسلوب أقل نبالة ، مشهداً سبق أن لعبه المعلمون . إن قسماً من « الحقوق المحب »⁽¹⁾ مبنيٌ وفقاً لهذه الخطة ، مثل أمفيتريون⁽²⁾ . وفي كوميديا صغيرة ومسلية لـ بنديكس اسمها « در انجنسين » ينعكس الترتيب ؛ ان المعلمين « الاسياد » هم الذين يعيدون مشهد عنادٍ أعطاهم الخدم مثله .

(1) مسرحية لموليير ، 1658 Le Déprit amoureux

(2) مسرحية لموليير من ثلاثة أبواب ، بالشعر الحر (1668) : امفيتريسون متنكراً يحاول إغواء زوجته .

ولكن مهما كانت الشخصيات التي تترتب بينها أوضاع متناظرة ، هناك فارق عميق يبقى قائماً بين الكوميديا الكلاسيكية والمسرح المعاصر . إن تضمين الأحداث ، نوعاً من الترتيب الرياضي ، مع الاحتفاظ لها بنوع من المعقولية ، أي من الحياة على الأقل ، هو الغاية الدائمة هنا . ولكن الوسائل المستعملة تختلف . في غالبية المهازل ، يُشغَل مباشرة عقل المشاهد . ومهما بدت المصادفة غريبة عجيبة في هذا الشأن ، فإنها تصبح مقبولة بفعل انها فقط قد قُبِلت ، ونحن نتقبلها إذا هيأونا تدريجياً لتلقيها . هكذا يتصرف في أغلب الأحيان المؤلفون المعاصرون . وبالعكس ، في مسرح مولير ، ان استعدادات الشخصيات ، وليست استعدادات الجمهور ، هي التي تجعل العرض يبدو طبيعياً . إن كلاً من هذه الشخصيات يمثل نوعاً من القوة السائرة باتجاه ما . ولأن هذه القوى ، ذات الاتجاه الثابت تتألف بالضرورة ، فيما بينها ، بنفس الأسلوب ، يحدث نفس الوضع . إن كوميديا الوضع ، بمفهومها هذا ، تقارب أو « تلتقي » إذاً مع كوميديا الشخصية وتستحق أن تسمى كلاسيكية ، هذا إذا صح أن الفن الكلاسيكي هو الفن الذي لا يطمح الى أن يستخلص من الأثر أكثر مما وضع في السبب .

2 - الارتداد - هذا الأسلوب الثاني فيه الكثير من التشابه مع الأول حتى اننا نكتفي فيه بأن نعرفه دون أن نركز على التطبيقات . تخيل بعض الشخصيات في وضعٍ ما : إنك تحصل على مشهد كوميدي ، حين تجعل الوضع ينقلب وحين تتبدل الأدوار . من هذا النوع يتألف المشهد المزدوج ، مشهد الانقاذ في « رحلة مسيو يريشون » . إنما ليس من الضروري حتى ، أن يلعب المشهدان المتناظران أمام أعيننا . إذ بالإمكان الاكتفاء بإظهار واحدٍ منها ، شرط التأكد أننا نفكر بالآخر . وهكذا نضحك من الموقوف المتهم الذي يقدم المواعظ للقاضي ، ومن الطفل الذي يريد إعطاء الدروس لوالديه ، وأخيراً من

الشيء الذي يصنف تحت عنوان « العالم المقلوب » .

في أغلب الأحيان تعرض علينا شخصية تُعد الشباك التي تقع هي فيها . ان حكاية المضطهد ، الضحية لاضطهاده ، وحكاية الخادع المخدوع ، يشكل أساس الكثير من الكوميديات . ونجد هذه الحكاية في المسافر القديمة . إن المحامي باتلين يدل زبونه على حيلة لخداع القاضي : ويستعمل الزبون الحيلة لكي لا يدفع أتعاب المحامي . وتطلب امرأة مشاكسة من زوجها أن يقوم بكل أعمال المنزل ؛ ووضعت تفاصيل هذه الأعمال على « لائحة » . وتقع المرأة في قاع برميل ، فيرفض زوجها تخليصها لأن هذا الأمر « غير مدروج في اللائحة » . واستعمل الأدب المعاصر بدائل كثيرة أخرى حول موضوع السارق المسروق . والأمريتيعلق دائماً ، بقلبٍ للدوار ، وبوضعٍ ينقلب ضد من ابتدعه .

هنا يتحقق قانون سبق وأشرنا الى أكثر من تطبيقٍ له . عندما تتكرر إعادة مشهد ، فإنه يدخل في حالة « الفئة » أو « النوع » أو النموذج . ويصبح بذاته مسلياً ، بمعزل عن الأسباب التي جلبت لنا الأنا . عندها تستطيع مشاهد جديدة ، ليست مضحكة حقاً ، أنها تؤنسنا بالفعل إذا شابهت « الفئة » من ما . فهي تحيي ، وبشكل غامض نوعاً ما ، في ذهننا صورة نعرفها نحن مضحكة . إنها تصنف ضمن نوع يتضمن نمطاً من الهزل المعترف به مياً . إن مشهد « السارق المسروق » هو من هذا النوع . إنه يشع ، على مجموعة من المشاهد الأخرى ، الهزل الذي يحتويه . وتنتهي بأن تكون هزلية مضحكة كل مغامرة فاشلة حصلت بخطأ من الفاعل ، مهما كان نوع هذا الخط ، ومهما كانت المغامرة . ماذا أذكر ؟ تلميحاً الى هذه المغامرة الفاشلة ، كلمة تذكر بها : « أردت ذلك انت يا جورج داندين » ، ان هذه الكلمة ليس فيها شيء من الهزل لولا الرجوع الهزلي الذي يمددها .

3 - لقد تكلمنا بما فيه الكفاية عن التكرار وعن القلب . ونصل الى تداخل السلاسل . إنه أثر هزلي يصعب استخلاص صيغته ، بسبب التنوع العجيب في الأشكال التي يظهر من خلالها في المسرح ، وفيما يلي تعريف محتمل له :

« إن مطلق وضع يكون مضحكاً دائماً ، عندما يرد ، بذات الوقت الى سلسلتين من الأحداث المستقلة تماماً ، وعندما يمكن تفسيره بأن واحد في اتجاهين مختلفين تماماً » .

وفي الحال نتذكر « اللبس » . واللبس هو ، بالفعل ، وضع يمثل بذات الوقت اتجاهين مختلفين ، أحدهما ممكن ببساطة ، وهو الاتجاه الذي يعطيه الممثلون له ، والآخر حقيقي ، وهو الاتجاه الذي يقصده الجمهور . إننا ندرك المعنى الحقيقي للوضع ، نظراً للعناية المبذولة من أجل أن نرى كل الأوجه ؛ ولكن الممثلين لا يعرف كل منهم الا وجهاً واحداً من هذه الأوجه : من هنا خطأهم ، من هنا الحكم الخطأ الذي يحملونه ضد ما يجري حولهم ، وضد ما يقومون به بأنفسهم . ونحن سنتطرق من هذا الحكم الخطأ نحو الحكم الصحيح ؛ ونحن نتأرجح بين المعنى الممكن والمعنى الحقيقي ؛ وتأرجح فكرنا هذا بين التفسيرين المتعارضين هو الذي يظهر أولاً في الألبس الذي يقدمه لنا اللبس . من المعلوم أن بعض الفلاسفة قد لفتت هذه الأرجحة ، وإن البعض رأى جوهر الهزل بالذات في الصدمة ، أو في تراكم حكمين يتناقضان . ولكن تعريفهم قلماً يلائم كل الحالات ؛ وحيث تكون ملائمة فالتعريف لا يجد مبدأ الهزل ، بل فقط إحدى نتائجه البعيدة نوعاً ما . من السهل أن نرى ، فعلاً ، أن اللبس المسرحي ليس إلا حالة خاصة لظاهرة أعم هي تداخل السلاسل المستقلة ، وأن اللبس ليس مضحكاً بذاته ، بل فقط كإشارة أو دلالة على تداخل السلاسل .

في اللبس ، تدخل كل شخصية في سلسلة من الأحداث تهمها ، وهي ممثلة فيها بشكل صحيح ، وهي تنظم وفقاً لهذه الأحداث كلامها وأفعالها . وكل سلسلة من السلاسل تهم كلاً من الشخصيات . وهي تتطور بشكل مستقل ؛ ولكنها تلتقي في لحظة ما ضمن ظروف بحيث أن الأفعال والأقوال التي تدخل في إحدى هذه السلاسل تستطيع أيضاً أن تلائم الأخرى . من هنا سوء تفاهم الشخصيات ومن هنا الالتباس ؛ ولكن هذا الالتباس ليس هزلياً بذاته ؛ وهو ليس كذلك إلا لأنه يظهر تطابق سلسلتين مستقلتين . والبرهان فيها هو أن المؤلف يتوجب عليه دائماً أن يبرع في رد انتباهنا نحو هذه الواقعة المزدوجة ، الاستقلال والمصادفة . وهو يتوصل الى ذلك عادة ، حينما يجدد باستمرار التهديد الخاطيء بالفصل فيما بين السلسلتين المتطابقتين . في كل لحظة كل شيء سوف ينهار ، وكل شيء يصحح من جديد : إن هذه اللعبة هي التي تضحك ، أكثر من تردد فكرنا بين تأكيدين متناقضين . وهو يضحكنا لأنه يظهر أمام أعيننا تداخل سلسلتين مستقلتين ، هذا التداخل الذي هو المصدر الحقيقي للأثر الهزلي .

ثم ان اللبس لا يمكن أن يكون إلا حالة خاصة . إنه إحدى الوسائل (الأكثر اصطناعاً ربما) التي تجعل تداخل سلسلتين محسوساً : ولكنه ليس الوسيلة الوحيدة . فبدلاً من سلسلتين متعاصرتين ، يمكن أيضاً اتخاذ سلسلة من الأحداث القديمة وسلسلة أخرى حالية : فإذا توصلت السلسلتان الى التداخل في خيالنا ، فلا يعود هناك لبس ، ومع ذلك يستمر الأثر الهزلي في حدوثه . ففكر في أسر بونيفار في قصر شيون⁽¹⁾ : هذه أول سلسلة من الوقائع . وتصوره بعدها تارتاران وهو يسبح في سويسرا ، ثم يوقف ويحبس : سلسلة أخرى ، مستقلة عن الأولى . وتصور الآن أن تارتاران

(1) مواطن من جنيف (1493-1570) خلده بيرون في قصيدته سجين شيون .

مسمّر في نفس سلسلة بونيفار الحديدية ، وان القصتين تبدوان للحظة متطابقتين ، فإنك تحصل على مشهدٍ مسلٍ للغاية ، أحد المشاهد الأكثر تسلية التي ابتدعها خيال دودي⁽¹⁾ المبدع . ان الكثير من الأحداث من النوع البطولي الساخر يتفكك هكذا . والانتقال الهازل عموماً ، من القديم الى الحديث يستلهم نفس الفكرة .

واستخدم لايش (1815-1880) الأسلوب بجميع أشكاله . فمرة يبدأ بتشكيل السلاسل المستقلة ، ويتسلى بعدها بإيلاجها بعضها ببعض : فيأخذ مجموعة مغلقة ، حفلة عرس مثلاً ، ويضعها في أوساط غريبة تماماً ، حيث تتيح له بعض المصادفات أن يتدخل بصورة مؤقتة . ومرة يحتفظ داخل القطعة بنموذج واحد موحد من الشخصيات ولكنه يجعل بعضاً من هذه الشخصيات وكأن لديها ما تخفيه ، أو كأنها مضطرة الى التفاهم فيما بينها ، فتلعب أخيراً ، كوميديا صغيرة داخل الكوميديا الكبرى : وفي لحظة تتدخل إحدى المسرحيتين لتشوش على الأخرى ، ثم تترتب الأمور ويعود التوافق بين السلسلتين فيستقر . وطوراً تدخل سلسلة من الأحداث ، مثالية تماماً ، داخل السلسلة ، مثلاً ، ماضٍ يراد إخفاؤه ، ولكنه باستمرار يبرز في الحاضر ، وفي كل مرة تتم مصالحته مع الأوضاع التي بدا وكأنه جاء ليقلبها . ولكننا دائماً نعثر على السلسلتين المستقلتين ونعثر على التوافق الجزئي .

إننا لن ن تعمق أكثر في هذا التحليل لوسائل أو أساليب المسرحية الهزلية . أن يكون هناك تداخل بين السلاسل ، قلب أو تكرار ، اننا نرى أن الغرض هو دائماً نفسه : الحصول على ما سميناه « مكثته » الحياة . إننا نأخذ نظاماً من الأعمال ومن العلاقات ، ثم نكرره كما هو ، أو اننا نقلبه رأساً على عقب ، ثم

(1) الفونس دودي 1840-1897 مؤلف فرنسي من المدرسة الطبيعية برع في تصوير الواقعي للحياة .

ننقله بكليته الى نظام آخر يتوافق معه جزئياً - عمليات تقوم على معالجة الحياة وكأنها أوالية تكرارية ، مع آثار ارتدادية ، وقطع قابلة للتبادل . إن الحياة الحقيقية هي مسرحية هزلية ، بالمقياس الدقيق الذي يجعلها تُحدث ، بصورة طبيعية ، آثاراً من نفس النوع ، وبالتالي بالمقياس الدقيق الذي به تُنسى أنها مسرحية هزلية إذ إذا كانت باستمرار تتبته الى ذاتها ، فإنها تصبح استمرارية متنوعة ، وتقدماً لا يرتد ، ووحدة لا تتجزأ . ولهذا يمكن تعريف هزل الأحداث بأنه تسلية بالأشياء ، كما أن هزل الصفة الفردية يتعلق - كما سبق وأشرنا الى ذلك عرضاً وكما سنبينه بالتفصيل فيما بعد - بنوع من التسلية الجذرية أو السهو عند الشخص . ولكن هذه التسلية بالأحداث استثنائية . وآثارها خفيفة . وهي على كل حال غير قابلة للتصحيح ، بحيث انه لا ينفع فيها أن نضحك منها . ولهذا لم يخطر بالبال المبالغة فيها ، أو رفعها الى مرتبة النظام أو المذهب ، أو خلق فن لها ، لو أن الضحك لم يكن لذة ، ولو أن البشرية لا تغتنم الفرصة السانحة ولو صغيرة ، من أجل توليده . هكذا تفسر المسرحية الهزلية ، التي هي ، بالنسبة الى الحياة الحققة ، ما تشكله الدمية البشرية بالنسبة الى الانسان الذي يمشي ، مبالغة شديدة الاصطناع لتبيس طبيعي في الأشياء . إن الخيط الذي يربط المسرحية الهزلية بالحياة الواقعية رفيع للغاية . إنه ليس أكثر من لعبة ، مرتبطة ككل الألعاب ، باتفاق مقبول في بادئ الأمر . إن كوميديا الشخصية تنبت في الحياة جذوراً عميقة بشكل مختلف . ونحن سنهتم بها في القسم الثاني من دراستنا . إنما يتعين علينا بادئ الأمر أن نحلل نوعاً من الهزل يشبه في كثير من الجوانب نوع المسرحية الهزلية ، هو هزل الكلمات .

II

ربما كان هناك شيء ما مصطنع ان نجعل من هزل الكلمات فئة خاصة ،

لأن غالبية الآثار الهزلية التي درسناها حتى الآن حدثت عن طريق الكلام . إنما يجب التمييز بين الهزل الذي يعبر عنه الكلام والهزل الذي يخلقه الكلام . فالأول ، يمكنه ، عند اللزوم ، أن يترجم من لغة الى لغة ، وإن خسر القسم الأكبر من نكهته ، عند انتقاله الى مجتمع جديد ، مختلف بآدابه ، وأدبه ، وخاصة بتداعيات أفكاره . ولكن الثاني غير قابل للترجمة عموماً . وهو مدين بما هو عليه الى بنية الجملة أو الى اختيار الكلمات . فهو لا يلحظ بواسطة الكلام ، بعض حالات السهو الخاصة التي تعترى الرجال أو الأحداث ، بل يشير الى مزالق وزلات الكلام بالذات . إن الكلام بالذات ، هنا ، هو الذي يصبح هزلاً .

صحيح أن الجمل لا تصاغ لوحدها ، وإنما عندما نضحك منها ، نستطيع أن نضحك من مؤلفها في نفس المناسبة . ولكن هذا الشرط الأخير ليس ضرورياً دائماً . ان الجملة ، والكلمة تتمتع هنا بقوة هزلية مستقلة . والدليل على ذلك أننا نكون متضايقين ، في معظم الحالات ان سألنا ممن نحن نضحك ، رغم أننا نستشعر أحياناً أن هناك شخصاً معيناً نضحك منه .

إن الشخص المعني ، ليس دائماً الشخص الذي يتكلم . إذ يوجد هنا تمييز مهم يجب إجراؤه بين الذكاء والهزل . ربما نجد أن كلمة ما توصف بأنها هزلية ، عندما تضحكنا من الشخص الذي يتلفظ بها ، وإنما ذكية عندما تضحكنا من ثالث أو تضحكنا من أنفسنا .

ولكن في أغلب الأحيان ، نحن لا نعرف أن نقرر هل الكلمة هزلية مضحكة أو هي ذكية فكرية . المهم أنها مضحكة وهذا يكفي . وربما يتعين ، قبل الذهاب الى أبعد ، أن نتفحص عن قرب ما يفهم من كلمة « ذكية » . لأن « الكلمة الذكية » تحملنا على الأقل على الابتسام ، بحيث لا تكمل دراسة الضحك إن هي أهملت التعمق في طبيعة الفكر ، وتوضيح فكرته . ولكني

أخشى أن يكون هذا الجوهر اللطيف جداً من تلك الجواهر التي تتحلل في الضوء .

لنميز في بادئ الأمر بين معنيين لكلمة «ذكاء» (esprit) ، أحدهما واسع والآخر ضيق . بالمعنى الأوسع للكلمة ، يبدو أننا نسمي «ذكاء» نوعاً من الكيفية الدراماتيكية في التفكير . فبدلاً من معالجة الانسان أفكاره كرموز حيادية ، يراها الرجل الذكي ويسمعها ، ويجعلها تتحاور فيما بينها وكأنها أشخاص . فهو يضعها على المسرح ، ويضع نفسه أيضاً ، ولو قليلاً ، على المسرح . فالشعب الذكي هو شعب معجب بالمسرح . في الرجل الذكي هناك شيء من الشاعر ، كما يوجد في القارئ الجيد بداية ممثل كوميدي . ولاني أجري هذه المقارنة عن عمد ، إذ أننا نضع بدون مشقة تناسباً بين الكلمات الأربعة . فمن أجل إجادة القراءة ، يكفي امتلاك القسم الفكري من فن الممثل ؛ ولكن من أجل إجادة التمثيل ، يجب أن يكون الشخص ممثلاً بكل روحه وبكل شخصه . وهكذا يقتضي الابداع الشعري نوعاً من نسيان الذات ، وهي خلة لا يشكو من نقصها ، عادة ، الرجل الذكي . فهذا الأخير يظهر شفافاً إلى حد ما من خلال ما يقول وما يفعل . وهو لا يغرق فيهما ، لأنه لا يضع فيهما إلا ذكاءه .

كل شاعر يمكن أن يتكشف عن مفكر عندما يحلوه . وهو لا يكون بحاجة إلى اكتساب شيء ما من أجل هذا . بل ربما كان عليه أن يخسر شيئاً ما . ويكفيه أن يترك أفكاره تتحاور فيما بينها « لا شيء » ، بل من أجل اللذة . وليس عليه إلا أن يفك الرابط المزدوج الذي يجعل أفكاره متصلة بمشاعره ، ويجعل روحه على اتصال بالحياة . وأخيراً انه ينقلب إلى رجل فكر إن لم يشأ أن يكون شاعراً بالقلب أيضاً ، بل بالذكاء فقط .

ولكن إذا كان الفكر يقوم عموماً على رؤية الأشياء « تحت خصوصية

المسرح « (Sub. specie theatri) فمن المقبول أنه يستطيع أن يكون ملتفتاً بشكل أخص نحو نوع من أنواع الفن الدرامي ، وهو الكوميديا . من هنا المعنى الأضيق للكلمة ، وهو المعنى الوحيد الذي يهمننا ، من جهة نظرية الضحك . هذه المرة نطلق كلمة «ذكاء» على نوع من الاستعداد العابر لرسم مشاهد الكوميديا ، إما لرسمها ووضعها بشكل حذر وخفيف وسريع بحيث ينتهي كل شيء عندما نبدأ نحن بوعي ذلك .

من هم الممثلون في هذه المشاهد ؟ ومع من يتعاطى رجل الذكاء ؟ انه يتعاطى أولاً مع محاوريه أنفسهم . عندما تكون الكلمة جواباً مباشراً لأحد منهم . ويتعاطى غالباً مع شخص غائب يفترض رجل الفكر هذا أنه تكلم معه . وأنه هو يرد عليه . ويتعاطى في أغلب الأحيان أيضاً ، مع كل الناس ، وأريد أن أقول مع الحس العام . فيتخذ خصماً وذلك بتسخيفه فكرة شائعة ، أو باستعماله منحنى جملة مقبول ، أو بتقليد مثل أو كلمة بليغة . قارن هذه المشاهد الصغيرة فيما بينها ، فإنك ترى أنها على العموم تحويلات حول موضوع كوميديا نعرفها جيداً ، هو موضوع « السارق المسروق » . ونمساك بمجاز ، أو بجملة ، أو بتحليل عقلي ثم نقلها ضد من وضعها أو يستطيع أن يضعها ، بحيث يقول ما لم يشأ قوله ، حتى يأتي بنفسه . بنوع من الأنواع ، ليعلق في شبكة الكلام . ولكن موضوع « السارق المسروق » ليس الموضوع الوحيد الممكن . لقد استعرضنا كثيراً من أنواع الهزل ؛ وليس منها نوع لا يمكن تحويله الى لعبة فكرية .

إن كلمة « فكر » = ذكاء (esprit) تستجيب إذاً لتحليل نستطيع أن نعطي الآن ، إذا جاز القول ، صيغته . وهذه هي الصيغة . خذ الكلمة ، كشفها أولاً في مشهد ملعوب ، فتش بعدها عن الفئة الهزلية التي إليها ينتمي هذا

المشهد : إنك بهذا تحول كلمة « فكر » = ذكاء الى عناصرها الأبسط ، وتحصل على التفسير الكامل .

فلنطبق هذه الطريقة على مثل كلاسيكي . « عندي وجع في صدرك » : هكذا كتبت مدام دي سيفيني الى ابنتها المريضة . هذه كلمة ذكية . فإذا كانت نظريتنا صحيحة ، يكفي أن نركز على الكلمة ، وأن نكبرها وأن نسمكها ، ثم نراها تتسع لتصبح مشهداً مضحكاً . ولكننا بالضبط نجد هذا المشهد الصغير ، جاهزاً في « الحب الطيب » لموليير . إن الطبيب المزور كليتاندر ، وقد استدعي ليقدم خدماته لابنة سغاناريل ، يكتفي بأخذ نبض سغاناريل بالذات ، ويعدها يقرر بدون تردد ، اتكلاً على الود المفترض وجوده بين الأب والابنة قائلاً للاب : « إن ابنتك مريضة للغاية ! » . هذا هو المقطع الذي يحول الخطاب من الفكري الى الهزلي . ولا يبقى بعدها ، عندئذٍ ، لكي نكمل تحليلنا ، إلا أن نبحث عن ما هو هزلي في فكرة إصدار تشخيص على الولد بعد الفحص السريري للاب أو للام . ولكننا نعرف أن أحد الأشكال الأساسية في الابداع الهزلي يقوم على تصويرنا للانسان الحي كنوع من الدمية المتحركة ، وانه ، في أغلب الأحيان ، من أجل حملنا على تشكيل هذه صورة ، يُظهرون شخصين أو عدة أشخاص يتكلمون ويتصرفون كما لو كانوا مربوطين ببعضهم البعض بخيوط غير مرئية . أليست هذه هي الفكرة التي يوحى بها إلينا هنا ، بحملنا على تجسيد ، إن أمكن القول ، الود الذي نفترض نحن وجوده بين الابنة وأبيها ؟

نفهم بعد هذا لماذا اكتفى المؤلفون الذين عاجلوا الفكر - الذكاء ، بالإشارة إلى التعقيد العجيب في الأشياء التي تدل عليها هذه العبارة ، دون النجاح عادة في الوصول الى تعريف لها . هناك أشكال وأشكال من الحالة الفكرية ، بما يعادل تقريباً حالات اللافكر . فكيف ندرك ما هو مشترك فيما بينها ، إذا لم

بتحديد العلاقة العامة بين الفكري والهزلي ؟ ولكن بعد استخراج هذه العلاقة ، يتضح كل شيء . بين الهزلي والفكري نكتشف نفس الرابط الموجود بين مشهد موضوع . والاشارة العابرة لمشهد يجب عمله . وبقدر ما يأخذ الهزل من أشكال ، بقدر ما يكون للفكر من تنوعات مقابلة . وإذا يجب أولاً تعريف الهزل ، بأشكاله المتنوعة مع العثور (وهذا أمر صعب للغاية) على الخيط الذي يقود من شكل الى شكل آخر . وبهذا نكون قد حللنا الفكر ، الذي يظهر عندئذ وكأنه ليس الا الهزل متطائراً . ولكن اتباع الطريق المعاكسة ، والبحث مباشرة عن صيغة الفكر ، يعني الوصول الى فشل أكيد . ماذا يقال عن الكيميائي الذي تتوفر في مختبره الأجسام بالقدر الذي يشاء ، والذي يزعم بأنه لا يدرسها إلا في حالة المعالم البسيطة المتطايرة في الفضاء ؟

ولكن هذه المقارنة بين الفكري والهزلي تدلنا بذات الوقت على المسار الواجب الاتباع لدراسة الهزل في الكلمات . من جهة نرى ، فعلاً ، أن لا وجود لفرق أساسي بين كلمة هزل وكلمة ذكاء ومن جهة أخرى . إن كلمة فكر (= ذكاء) وان ارتبطت بصورة من صور الكلام ، فإنها توحي بصورة غامضة أو واضحة لمشهد هزلي . وهذا يعني القول أن هزل الكلام يجب أن يتوافق ، نقطة نقطة ، مع هزل الأفعال والأوضاع ، وانه لا يشكل بالنسبة اليها - إذا أمكن التعبير بهذا الشكل - إلا صورتها مسقطة بشكل كلمات . ولنعد الى هزل الأعمال والأوضاع . ننظر الى الأساليب الرئيسية التي بها يمكن الحصول عليه . ولنطبق هذه الأساليب على اختيار الكلمات وعلى بناء الجمل . وهكذا نحصل على الأشكال المتنوعة لهزل الكلمات وعلى مختلف أنواع الفكر الذكاء الممكنة .

I - يشكل الإنسياق ، أو الاسترسال ، بفعل من التيسر أو من السرعة المكتسبة ، وراء قول ما لا نريد قوله ، أو وراء فعل ما لم نشأ فعله ، كما

نعرف ، أحد مصادر الهزل الكبرى . ولهذا يعتبر السهو مدعاة للضحك بشكل أساسي . ولهذا نضحك أيضاً مما يمكن أن يكون من تيسر ، ومن جاهزية ، ومن ميكانيك أخيراً في الحركة ، وفي المواقف وحتى في قسمات الوجه . وهذا النوع من التيسر هل هو ملحوظ أيضاً في الكلام ؟ نعم ، ولا شك ، إذ توجد صيغ جاهزة وجمل منمطة منمقة . فالشخص الذي يعبر دائماً بهذا الأسلوب يكون بدون شك مضحكاً . ولكن لكي تصبح جملة منفردة مضحكة بذاتها ، بعد أن تنفصل عن الشخص الذي يتلفظ بها ، لا يكفي أن تكون جملة جاهزة ، بل يجب أيضاً أن تحمل بذاتها إشارة فيها نعرف ، بدون تردد ممكن ، بأنها قد لُفِظت بصورة أوتوماتيكية . وهذا قلماً يحصل إلا إذا كانت الجمل تحتوي على لا معقولة ظاهرة ، أو على خطأ جسيم أو على تناقض في التعابير . من هنا هذه القاعدة العامة :

« نحصل على كلمة هزلية حين نبث فكرة لا معقولة مستحيلة في قالب من الجمل مكرس » .

« إن هذا السيف هو أجل يوم في حياتي » يقول . م . برودهوم . تَرْجِمُ العبارة الى الانكليزية أو الى الألمانية ، تصبح مستحيلة أو باطلة ، مهما بدت مضحكة بالفرنسية . ذلك أن عبارة « أجل يوم في حياتي » هي واحدة من أواخر الجمل الجاهزة التي اعتادتها آذاننا . ويكفي عندها ، من أجل جعلها مضحكة ، أن نبرز للعيان الأوتوماتية عند الشخص الذي يتلفظ بها . وهذا ما يحصل حينما ندخل عليها الشيء اللامعقول أو الباطل . ان الاستحالة هنا ليست هي الهزل ، انها مجرد وسيلة بسيطة جداً وفعالة جداً لكشف الهزل .

نحن لم نذكر إلا كلمة من كلمات م . برودهوم . ولكن غالبية الكلمات المسنودة اليه مصنوعة من نفس النموذج . م . برودهوم هو الانسان صاحب الجمل الجاهزة . وبما أنه توجد جمل جاهزة في كل اللغات ، فإن م . برودهوم

قابل للنقل ، وان بدت نادرة ، ترجمته .

في بعض الأحيان ، تكون الجملة التافهة ، التي تمر الاستحالة تحت غطائها ، صعبة الإدراك قليلاً . مثاله : « لا أحب أن أعمل بين وجباتي » يقول الكسول . والكلمة لن تكون مضحكة لو لم تكن هناك الحكمة الصحية القائلة : « يجب عدم الأكل بين الوجبات » .

وفي بعض الأحيان أيضاً يتعقد الأثر . فبدلاً من قالب واحد من الجمل التافهة ، نجد اثنين أو ثلاثة يتراكب أحدها في الآخر .

مثاله هذه الكلمة على لسان شخصية من شخصيات لايش : « ليس غير الله له الحق بقتل مثيله » . يبدو هنا أن الإفادة قد حصلت من حكمتين نحن نألفهما : « الله هو الذي يتحكم بحياة الناس » ، و : « إنها الجريمة أن يقتل الإنسان مثيله » . ولكن الحكمتين دمجتا بشكل يغش أذننا ويعطينا الانطباع عن واحدة من هذه الجمل التي تتكرر والتي تقبل بشكل آلي . من هنا تنعس انتباهنا الذي سرعان ما توقظه الاستحالة فجأة .

هذه الأمثلة تكفي للإفهام كيف أن الأشكال الأكثر أهمية في الهزل تنعكس وتبسط على صعيد الكلام . ولنتنقل الى شكل أقل عمومية .

2 - « إننا نضحك في كل مرة يتحول فيها انتباهنا الى المظهر الخارجي للشخص ، في حين يكون المعنى هو المقصود » : هذا هو قانون طرحناه في القسم الأول من عملنا . فلنطبقه على الكلام . يمكن القول أن غالبية الكلمات تمثل معنى جسدياً « فيزيائياً » ومعنى « أدبياً » بحسب ما نأخذها بالمعنى الحقيقي أو المجازي . فكل كلمة تبدأ بالدلالة على شيء محدد أو على فعل مادي ، ولكن معنى الكلمة يأخذ تدريجياً بالتسامي الى علاقة تجريدية أو

الى فكرة خالصة . وإذا كان قانوننا يطبق هنا ، فإن عليه أن يأخذ الشكل التالي :

« نحصل على أثر مضحك عندما نحاول أن نفهم تعبيراً ما بمعناه الحقيقي ، في حين أنه استعمل بمعناه المجازي » .
أو أيضاً :

« منذ أن يتركز انتباهنا على مادية مجازٍ ما ، فإن الفكرة المعبر عنها تصبح هزلية » .

« كل الفنون هي أخوة » : في هذه الجملة تؤخذ كلمة « أخوة » بالمعنى المجازي للدلالة على تشابهٍ عميق نوعاً ما . والكلمة تستخدم غالباً ، بحيث أننا لا نفكر ، ونحن نسمعها ، بالعلاقة المحددة والمادية التي تقتضيها القرابة . واننا نفكر فيها أكثر ان قيل لنا : « كل الفنون أبناء عم » لأن كلمة « ابن عم » هي أقل استعمالاً بالمعنى المجازي ؛ ثم ان هذه الكلمة تؤخذ هنا بمعنى هزلي خفيف . واذهب الآن حتى النهاية ، وافترض أن انتباهنا قد جذب بعنف الى مادية الصورة ، باختيار علاقة قرابة لا تتلاءم مع نوع الكلمات التي يجب أن تجمعها هذه القرابة : عندها يحصل لديك أثر مضحك . إنها الكلمة المشهورة المعزوة أيضاً الى م . برودهوم : « كل الفنون هن أخوات » .

قيل أمام بوفلر عن شخص « انه يركض وراء الفكر » ويقصدون شخصاً مدعياً . ولو أن بوفلر أجاب « انه لن يدركه » لكان ذلك بداية كلمة ذكية ؛ ولكن هذا ما كان ليكون إلا البداية لأن كلمة « إدراك » أخذت بالمعنى المجازي ، بما يعادل من حيث الكثرة ، كلمة « ركض » ، وانها لا تكررنا بالعنف الكافي على تجسيد صورة العدائين المنطلق أحدهما وراء الآخر . أتريد أن تبدولي الاجابة فكرية خالصة ؟ يتوجب عليك أن تستعير من معجمية الرياضة كلمة محددة بهذا الشكل ، وحية ، بحيث أستطيع أن أمتنع كلياً عن

مشاهدة السباق. هذا ما فعله بوفلر حين قال: «إني أراهن على الفكر - الذكاء».

نقول ان الفكر يقوم غالباً على مط فكرة مُحاورٍ الى حد تقويله عكس فكرته ، بحيث يأتي بنفسه ، كما يقال ، ليقع في شرك خطابه ، نضيف الآن ان هذا الشرك هو في أغلب الأحيان أيضاً مجاز أو مقارنة تُرد المادية ضدها . اننا نذكر هذا الحوار بين ام وولدها في « الأطياب الكاذبون » Les faux bonhommes : « يا صديقي ، البورصة هي لعبة خطيرة . نربح يوماً ونخسر في اليوم التالي .- وإذا ، إني لا ألعب إلا كل يومين » . في نفس القطعة ، هذا الحوار المعبر بين رجلي مال : هل هذا شرعي ما نقوم به هنا ؟ بشأن هؤلاء المساهمين التعساء ، اننا نأخذ أموالهم من جيوبهم : ومن أين تريدنا أن نأخذها ؟ » .

ثم إننا نحصل على أثر مضحك عندما نفسر رمزاً أو شعاراً تفسيراً مادياً ثم نتصنع عندئذ بأن نحتفظ لهذا التفسير بنفس القيمة الرمزية التي للشعار . عُرض علينا ضمن مسرحية ضاحكة ، موظف من موناكو بزته مغطاة بالمدايات ، مع إنه لم يُمنَح إلا وساماً واحداً فقال مبرراً « ذلك اني وضعتُ مداليتي على غمرة في الروليت ، ولما كانت هذه النمرة قد ربحت ، فقد صار لي الحق بست وثلاثين مدالية اضعها. » (1) . أليس مثيلُ هذا التحليل ما أدلى به جيوايه في « الوقحون » ؟ يجري الكلام عن عروس عمرها أربعون سنة تتزين بأزهار الليمون فوق ثوب العرس . فقال جيوايه : « يحق لها أن تتزين بالبرتقال » . [إشارة إلى أنها لم تعد زهرة بل ثمرة مقطوفة] .

لكننا لن ننتهي من هذا ان نحن استعرضنا واحداً واحداً مختلف القوانين التي أعلننا عنها ، وبحثنا تطبيقها على ما أسميناه خطة الكلام . ونحسن صنعاً

(1) الميز فوق غمرة من غمر الروليت الست والثلاثين تربع ستة وثلاثين ضعفاً (الترجمة) .

إن وقفنا عند الأحكام الثلاثة العامة الواردة في فصلنا الأخير . لقد بينا أن « سلاسل من الأحداث » قد تصبح هزلية اما بالتكرار ، أو بالقلب أو أخيراً بالتداخل . وسنرى أن الأمر هو نفسه بالنسبة الى سلاسل الكلمات .

إن أخذ سلاسل الأحداث وتكرارها بلهجة جديدة ، أو في مكان جديد ، أو تبديلها مع الاحتفاظ لها أيضاً بالمعنى ، أو خلطها بشكل يجعل مدلولاتها النسبية متداخلة فيما بينها ، إن هذا مضحك - نقول - لأنه يعني الحصول من الحياة على الاستسلام للمعالجة الميكانيكية . ولكن الفكرة (la pensée) هي أيضاً ، شيء يحى ويعيش ، والكلام الذي يترجم الفكرة ، يجب أن يكون حياً مثلها . وهكذا نحزر كيف تصبح جملة ما مضحكة إن أعطت أيضاً معنى ، عند قلبها ، أو إن عبرت ، بدون فرق ، عن نظامين من الأفكار مستقلين تماماً ، أو أخيراً إذا حصلنا عليها بنقل فكرة بلهجة ليست لها . تلك هي بالفعل القوانين الثلاثة الأساسية لما يسمى « التحول الهزلي في الجمل » ، كما سوف نبينه بفضل بعض الأمثلة .

لنقل في بادئ الأمر ، ان هذه القوانين الثلاثة ، ليس لها أهمية متساوية فيما يتعلق بنظرية الهزل . فالقلب هو الأسلوب الأقل نفعاً . ولكنه ذو تطبيق سهل ، لأننا نلاحظ أن محترفي التفكير ، منذ أن يسمعوا لفظ جملة ، يفتشون فيها عن إمكانية الحصول على معنى فيها عند قلبها ، مثلاً عند وضع الفاعل محل الفعل أو الفعل محل الفاعل . وليس من النادر استخدام هذه الوسيلة لدحض فكرة بكلمات ربما تكون مستحبة سارة . في كوميديا لـ لايش تصرخ شخصية الى المستأجر فوق ، الذي يوسخ البلكون : « لماذا ترمي غلاينيك على سطحتي ؟ » فيجيبه صوت المستأجر فوق « لماذا تضع سطحتك تحت غلايني ؟ » ولكن من غير المجدي الإلحاح على هذا النوع من الفكر . فالأمثلة منه كثيرة جداً وسهلة .

إن تداخل نظامين من الأفكار في نفس الجملة هو مصدر لا ينضب من الآثار المضحكة . هناك الكثير من الوسائل للحصول هنا على التداخل ، أي إعطاء نفس الجملة معنيين مستقلين يتراكمان .

وأقل هذه الوسائل قيمة هو التورية أو الجناس . في التورية انها نفس الجملة يكون لها معنيان مستقلان ، ولكن هذا ليس إلا ظاهراً ، ويوجد جملتان مختلفتان ، تتظاهر بخلطهما ببعضهما ، من حيث انها تعطيان نفس الصوت للأذن . من التورية نتقل بالتدرج اللاحسوس الى « لعبة الكلمات » الحقة . هنا يغطي نظاما الأفكار أحدهما الآخر فعلاً في جملة واحدة وحيدة ، في حين يتم التعامل بنفس الكلمات ؛ إنما تحصل الافادة من تنوع المعاني التي يمكن أن تتخذها الكلمة في انتقالها من المعنى الحقيقي الى المجازي . ثم اننا لا نجد غالباً الا دقيقتاً من الفرق بين لعبة الكلمات ، من جهة ، وبين المجاز الشعري أو المقارنة المفيدة من جهة أخرى . في حين أن المقارنة التي تعلم والصورة التي تُلَفَّت تبدو ان لنا وكأنها تُظهر ان لنا الانسجام الحميم بين الكلام والطبيعة ، باعتبارهما شكلين متقابلين من أشكال الحياة ، في حين تحملنا لعبة الكلمات ، بصورة أولى ، على التفكير بهفوة من هفوات اللسان ، الذي ينسى للحظة مقصده الحقيقي ، ويطمح الآن الى ترتيب الأشياء وفقاً لسياق الكلام ، بدلاً من انتظامه هو وفقاً لسياق الأشياء . إن لعبة الكلمات تنم عن سهو مؤقت في الكلام ، وبهذا يبدو مسلياً مضحكاً .

فالقلب والتداخل جميعاً ، ليسا إلا ألعاباً فكرية تنتهي بتلعيب الكلمات . إن هزل الانتقال هو الأعمق . فالانتقال هو بالنسبة الى الكلام الدارج ما يشكله التكرار بالنسبة الى الكوميديا .

نقول إن التكرار هو الأسلوب المفضل في الكوميديا الكلاسيكية . ويقوم على ترتيب العناصر بحيث يتولد مشهد ، إما فيما بين نفس الشخصيات في

ظروف جديدة ، وإما فيما بين شخصيات جديدة في أوضاع مماثلة . وهكذا يقوم الخدم - بلغة أقل نبلاً من لغة الأسياد - بتكرار مشهد سبق أن لعبه الأسياد . افترض الآن أفكاراً معروضة بأسلوب يلائمها ومحاطة بالتالي بمكانها الطبيعي . إذا تخيلت تجهيزاً يتيح لها أن تنتقل الى مكان جديد مع احتفاظها بالروابط القائمة فيما بينها ، أو بكلمات أخرى ، إذا حملتها على أن تعبر عن نفسها بأسلوب جديد ، وان تتحول الى لهجة أخرى مختلفة تماماً ، الكلام هو الذي يعطيك هذه المرة ، الهزل ، الكلام هو الهزل . ولا حاجة ، بعدها ، أن نتصور ، فعلاً التعبيرين عن نفس الفكرة ، التعبير المنقول والتعبير الطبيعي . نحن نعرف التعبير الطبيعي ، فعلاً ، انه الذي نصل اليه بالغريزة . وإذا فعلى الآخر ، على الآخر فقط ، ينصب جهد الاختراع الهزلي . فمذ أن يُعرض علينا الآخر ، فإننا نُلحِقُ به ، من أنفسنا ، الأول . من هنا هذه القاعدة العامة :

« نحصل على أثر هزلي (الضحك) ، بنقل التعبير الطبيعي من فكرة ما ، الى لهجة أخرى . »

ووسائل النقل متعددة ومتنوعة جداً ، ويصور الكلام متتالية غنية من اللهجات ، فالهزل قد يمر هنا بعدد كبير من الدرجات ، منذ التهريجة المسطحة وصولاً الى الأشكال العليا من المزاح والتكيت ، التي نقلع عن تعدادها بصورة كاملة . ويكفيها ، بعد أن وضعنا القاعدة ، أن نثبت ، من بعيد ، من تطبيقاتها الرئيسية .

من الممكن في بادئ الأمر ، التمييز بين لهجتين قصويتين : الرسمية والمألوفة . ونحصل على المفاهيم الأضخم بمجرد نقل إحداها الى الأخرى . من هنا اتجاهان متعارضان في الابداع الهزلي .

فلنحوّل المؤلف الى رسمي . فنحصل على التشنيعة . واثّر التشنيعة ،

المحدد هكذا ، يمتد ليصل الى حالات تصبح فيها الفكرة المعبر عنها بعبارات مألوفة . من الأفكار التي يجب أن تتبنى لهجة أخرى ، ولو بحكم العادة . مثاله هذا الوصف لبزوغ الفجر ، الذي ذكره جان - بول رينخر : « بدأت السماء تتحول من الأسود الى الأحمر ، مثل السمك الذي يُقلى » . نلاحظ أن التعبير عن الأشياء القديمة بتعابير من الحياة الحديثة يعطي نفس الأثر ، بسبب هالة الشعر الذي يحيط بالعصور القديمة الكلاسيكية .

إنه ، من دون شك ، هزل التشنيعة هو الذي أوحى لبعض الفلاسفة ، خاصة لالكسندر بين ، بفكرة تعريف الهزلي ، عموماً ، بأنه التراجع والتقهر . يتولد الهزل « عندما يُعرض علينا شيء - كان محترماً في السابق - كتافه أو منحط » . ولكن إذا كان تحليلنا صحيحاً ، فإن التقهر ، ليس إلا أحد أشكال النقل ، والنقل بذاته ليس إلا أحد أساليب الحصول على الضحك . هناك أساليب أخرى كثيرة ، ومصدر الضحك يجب أن يبحث عنه في الأعلى . ولكن ، وبدون الذهاب الى مثل هذا البعد ، من السهل أن نرى أن تحويل الرسمي الى مبتذل ، والأحسن الى أسوأ مضحك ، فالتنقل المعاكس يكون مضحكاً أكثر .

ونجد النقل المعاكس كما نجد النقل الآخر . ونستطيع - على ما يبدو - تمييز شكلين رئيسيين بحسب ما إذا كان النقل يتناول ضخامة الأشياء أو قيمتها . إن الكلام عن الأشياء الصغيرة كما لو كانت كبيرة ، يعني ، بشكل عام ، المبالغة . والمبالغة مضحكة عندما تمتد وخاصة عندما تكون منهجية ، وعندها ، بالفعل ، تظهر كوسيلة نقل وتحويل . فهي تضحك تماماً ، حتى أن بعض المؤلفين قد عرفوا الهزل بالمبالغة ، كما عرفه آخزون بالتقهر . الواقع ، ليست المبالغة - حالها كحال التقهر - الا شكلاً من بعض أشكال الهزل . ولكنه شكل ملفت جداً . لقد ولدت المبالغة القصيدة البطولية الهزلية ، وهي نوع

من الأدب قليل الاستعمال ، بدون شك ، ولكننا نجد بقاياه لدى كل الذين لديهم ميول للمبالغة المنهجية . يمكن القول أن التبجح ، في أغلب الأحيان ، في ناحيته البطولية الهزلية هي التي تضحكننا .

أما الانتقال من أسفل إلى أعلى ، الأكثر تصنعاً ، والأكثر لطافةً أيضاً ، فهو الذي يطبق على قيمة الأشياء ، لا على ضخامتها . إن التعبير بشرف عن فكرة غير شريفة ، واتخاذ موقف ماجن ، أو مهنة وضيعة أو سلوك منحط ، ووصفها بعبارات « شديدة الاحترام » Respectability ، ان هذا مضحك عموماً . لقد استخدمنا لكلمة « شديدة الاحترام » الانكليزية : لأن الأسلوب نفسه ، هو انكليزي فعلاً . ونجد عنه الكثير من الأمثلة عند ديكنز ، وعند تاكيري ، وفي الأدب الانكليزي عموماً . ونشير عابرين : ان زخم الأثر لا يتعلق هنا بطوله . إن كلمة واحدة تكفي أحياناً شرط أن تمكثنا هذه الكلمة من رؤية نظام كامل من النقل ، مقبول في وسط ما ، وأن تكشف لنا ، نوعاً ما عن تنظيم أخلاقي للفسق . إننا نذكر هذه الملاحظة عن موظف قدمها لأحد تابعيه ، في قطعة من مؤلفات غوغول : « إنك تسرق كثيراً بالنسبة الى موظف من رتبك » .

ولتلخيص ما تقدم ، نقول أولاً بوجود كلمتين للمقارنة ، قصوين : الأكبر والأصغر ، الأفضل والأسوأ ، وبينهما يتم النقل باتجاه أو بآخر . الآن ، وإذا ضيقنا قليلاً قليلاً المسافة نحصل على كلمات ذات تفارق أقل فأقل عنفاً ، وعلى آثار نقل هزلي أكثر فأكثر رهاقة .

والأعم الأعم من هذه التعارضات هي التعارض بين الواقعي والمثالي ، بين ما هو قائم وما يجب أن يقوم . هنا أيضاً قد يتم النقل في اتجاهين متعاكسين . مرة نعلن ما يجب أن يكون ، مع التظاهر بالاعتقاد بأنه هو هذا الشيء القائم : وهنا تكمن « السخرية » . ومرة ، بالعكس ، نصف بدقة وتشدد ما هو

قائم ، مع التظاهر بالاعتقاد أنه هكذا يجب أن تكون الأشياء : هكذا تجرى الدعابة . « والدعابة » وفقاً لهذا التعريف ، هي نقيض « السخرية » . وهما جميعاً من أنواع القدح والذم ، ولكن السخرية ، ذات طبيعة خطابية ، في حين أن الدعابة فيها شيء أكثر من العلمية . إننا نكثف السخرية مسترسلين استعلاءً بفكرة الخير الذي يجب أن يكون : ولهذا فإن السخرية قد تتصاعد وتحتد داخلياً بحيث تصبح ، نوعاً ما ، بلاغة تحت الضغط . ونكثف الدعابة بالعكس ، نزولاً نزولاً داخل الشر القائم ، حتى نتبين خصوصياته بلا مبالاة أكثر برودة . وقد لاحظ مؤلفون كثيرون ، ومن بينهم جان بول ، ان الدعابة تفضل الكلمات المحددة ، والتفصيلات التقنية ، والوقائع الدقيقة . وإذا كان تحليلنا دقيقاً صحيحاً ، فليس ما ذكرناه سمة عارضة من سمات الدعابة ، بل هو جوهرها بالذات ، حيثما ما وجدت . إن المنكت ، هو هنا معلم أخلاقيات ، يتنكر بشكل عالم ، إنه شيء ما كعالم التشريح الذي لا يقوم بالتشريح إلا من أجل التقريف ؛ والتنكيت ، بالمعنى الضيق حيث نستقي الكلمة ، هو بالتمام انتقال من الأخلاق الى العلم .

وإذا ضيقنا المسافة أيضاً بين الكلمات بحيث نستبدل إحداها الأخرى ، نحصل عندها على أنظمة استبدال ، مضحكة أكثر فأكثر خصوصية : إن لبعض المهن معجمية تقنية ، كم من مرة حصلنا على آثار مضحكة بنقل أفكار الحياة العادية الى هذه اللغة المهنية ! ويكون مضحكاً أيضاً توسيع لغة الأعمال لتشمل العلاقات الاجتماعية ؛ مثلاً هذه الجملة لشخصية من شخصيات لايش وهو يلوح الى كتاب دعوة تلقاه : « إن جمعيتك الصداقية ، جمعية الثالث من المنصرم » ، وهكذا نَقَلَّ العبارة التجارية « كتابكم المشرف بتاريخ الثالث من الشهر الجاري » . إن هذا النوع من الهزل قد يبلغ عمقاً خاصاً ، عندما لا يكشف فقط عادة مهنية ، بل يكشف عيباً في الشخصية . إننا نذكر

مشاهد من « الأطياب المزيفون » ، ومن « عائلة بنواتون » حيث يعالج الزواج كمشروع تجاري وحيث تطرح مسائل المشاعر ، بكلمات تجارية خالصة .

ولكننا نلامس هنا النقطة حيث لا تعتبر خصوصيات الكلام إلا عن خصوصيات الشخصية . ويتعين علينا أن نبقي للفصل التالي الدراسة الأكثر تعمقاً . هذا ما يجب توقعه بهذا الشأن ، وكما أمكن أن نرى مما تقدم ، ان هزل الكلمات يتبع عن قرب هزل الوضع ، ثم يضع ، مع هذا النوع الأخير من الهزل بالذات ، في هزل الشخصية . إن الكلام لا يؤدي الى مفاعيل مضحكة ، إلا لأنه من صنع البشر ، ولأنه مقولب تماماً وقدر الامكان ، بحسب أشكال الفكر البشري . إننا نحس فيه بشيء يحيا من حياتنا ؛ وإذا كانت هذه الحياة ، حياة الكلام كاملة مكتملة ، وإذا لم يكن فيها شيء ما يابس جامد ، وإذا كان الكلام أخيراً ، جسماً موحداً تماماً ، غير قابل للانقسام الى أجسام مستقلة ، فإنه يكون بعيداً عن الهزل ، كما تبعد عنه أيضاً روح ذات حياة منسجمة الجبلية ، موحدة ، شبيهة ببركة ما هادئة جداً . ولكن لا توجد بحيرة لا تترك أوراقاً ميتة تعوم فوق سطحها ، كذلك لا توجد نفس بشرية لا تتعلق بها عادات تيسسها ضد نفسها ، وذلك من خلال تيسسها ضد الآخرين ، وما من لغة ، أخيراً ، سهلة ومرنة ، وحية ، حاضرة بصورة كاملة ، في كل أقسامها من أجل استبعاد « الجاهز » منها ، ومن أجل مقاومة العمليات الميكانيكية الارتدادية ، والانتقالية الخ ، التي يراد تطبيقها عليها كما لو كانت مجرد شيء جامد . إن اليابس ، والجاهز ، والميكانيكي ، يقابل اللين ، الندائم التغير ، ويقابل الحي ؛ إن الانتباه يقابل السهو ، والAUTOMATIE تقابل النشاط الحر ، هذه هي عموماً ، ما تريد الضحكة أن تدل عليه وما تريد تصحيحه . لقد قصدنا من هذه الفكرة أن ننير منطلقنا ، في اللحظة التي باشرنا فيها تحليل الهزل . لقد شاهدنا هذه الفكرة تلمع عند كل

المنعطفات الحاسمة في طريقنا ، وبها سوف نباشر الآن بحثاً أكثر أهمية ، ونحن نأمل ، أكثر تثقيفاً . اننا نهدف ، فعلاً ، الى دراسة الصفات الهزلية ، أو بصورة أولى ، الى تحديد الشروط الأساسية في كوميديا الشخصية ، انما في محاولة لجعل هذه الدراسة تساهم في تفهيمنا طبيعة الفن الحق ، وكذلك الرابط العام بين الفن والحياة .

الفصل الثالث

هزل الشخصية أو الطبع

I

تتبعنا الهزل عبر الكثير من فتلاته وبرماته ، باحثين في كيفية تسربه الى الشكل ، والى الموقف ، والى الإشارة ، والى الوضع والى العمل والى الكلمة . ومع تحليل « الصفات » الهزلية ، نصل الآن الى القسم الأكثر أهمية في مهمتنا ، وهو ، عدا عن ذلك ، القسم الأصعب ؛ لو أننا استسلمنا لاغراء تعريف المضحك ، بواسطة بعض الأمثلة الصارخة ، وبالتالي الفجة : عندها - وبقدر ما نكون قد ارتفعنا نحو مظاهر الهزل الأكثر علواً - نكون قد رأينا الوقائع تسقط بين الثقوب الواسعة جداً في التعريف الذي يريد الامساك بهذه الوقائع . ولكننا اتبعنا في الحقيقة المنهج المعاكس : لقد وجهنا الضوء من أعلى الى أسفل .

ولقناعتنا أن الضحك له معنى وله مدلول اجتماعيان ، وإن الهزل يعبر ، قبل كل شيء ، عن نوع من اللاتكيف الخاص الكامن في الشخص ، تجاه المجتمع ، وأن لا هزل أخيراً إلا في الانسان ، بل إن الهزل هو الانسان : إن الشخصية هي التي استهدفناها أولاً .

إن الصعوبة كانت ، بصورة أولى ، قائمة في تفسير « كيف يتأتى لنا أن نضحك من شيء ما آخر غير الشخصية ، وبأية ظاهرات رهيفة ، ظاهرات الانطباع ، والدمج أو الخلط ، يستطيع الهزل أن يتسرب الى حركة بسيطة ، الى وضع غير شخصي ، والى جملة مستقلة . ذلك هو العمل الذي قمنا به حتى الآن . إننا أخذنا لأنفسنا المعدن النقي ، واتجهت جهودنا حتى الآن الى إعادة تكوين الركاز [المعدن غير الصافي] . ولكننا سندرس الآن المعدن بالذات . والأمـر سيكون سهلاً لاننا نواجه الآن عنصراً بسيطاً . فلننظر اليه من قرب ، ولننظر كيف يتفاعل مع الباقي .

قلنا : هناك حالات نفسانية نفعل منها منذ أن نعرفها . هناك أفراح وأحزان نتألف معها ، وهناك أهواء وعيوب تثير الاستغراب المؤلم ، أو الرعب ، أو الشفقة لدى الأشخاص الذين يتأملونها ، وأخيراً هناك مشاعر تمتد من نفس الى نفس من خلال تجاويزات عاطفية ، كل هذا يهم جوهر الحياة . وكل هذا جدي ، وأحياناً مأسوي . حين يتوقف شخص الغير عن إثارة مشاعرنا ، هنا فقط تبدأ الكوميديا . وهي تبدأ مع ما يمكن أن نسميه « التصلب ضد الحياة الاجتماعية » . يعتبر مضحكاً الشخص الذي يسير ، بصورة أوتوماتيكية ، طريقه دون أن يلتفت للاتصال بالآخرين . والضحك موجود لكي يصحح سهوه ولكي يصحبه من حلمه . وإذا جازت مقارنة الأشياء الصغيرة بالكبيرة ، فإننا نذكر هنا بما يحصل عند الدخول الى مدارسنا . بعد أن يكون الطالب قد اجتاز الاختبارات الرهيبة في الامتحانات ، يبقى عليه أن يواجه اختبارات أخرى ، اختبارات يُعدها له رفاقه الأقدم لكي يؤهلوه للمجتمع الجديد الذي يدخل اليه ، ولكي « يلبسوا طباعه » ، كما يقولون . إن كل مجتمع صغير يتكون داخل المجتمع الكبير ، يُحمل هكذا - بموجب غريزة غامضة - على ابتكار أسلوب في التصحيح وفي

التلين به يجد من يبوسة العادات المكتسبة خارج هذا المجتمع ، والتي يجب تغييرها . إن المجتمع بالذات لا يتصرف بشكل آخر . وان على كل فرد من أعضائه أن يبقى متنبهاً لما يحيط به ، وان يتقرب مع المحيط ، وأن يتفادى الانغلاق ضمن شخصيته ، كما لو كان في برج عاجي . ولهذا فإن المجتمع يرفع فوق رأس كل فرد ، - ان لم يكن سوط الاصلاح - فعلى الأقل احتمال الالهانة ، التي وإن كانت خفيفة ، فإنها تبقى مرهوبة . تلك هي وظيفة الضحك . فالضحك ، وهودائماً مشين بالنسبة الى الشخص المضحك منه ، هو حقاً نوع من التوبيخ الاجتماعي .

من هنا الطابع الالتباسي في الضحك . فهو ليس من الفن تماماً ولا هو من الحياة تماماً . من جهة ان شخصيات الحياة الواقعية لا يضحكونا إن لم نكن قادرين على مشاهدة مساعيهم كما لو كانت فوق مسرح نراقبه من أعلى ، من خلال مقصورتنا ؛ فهم ليسوا مضحكين في نظرنا إلا لأنهم يعطوننا الكوميديا . ولكن من جهة أخرى ، حتى في المسرح ، ليست لذة الضحك لذة خالصة ، أريد أن أقول لذة جمالية خالصة ، مجردة بصورة مطلقة . فهي دائماً مشوبة بفكر مبطن يُكنه المجتمع لنا حتى ولو لم تكن لدينا أية فكرة ؛ إذ يدخل في لذة الضحك نية التحقير غير المعترف بها ، وبالتالي نية التصويب أو الاصلاح ولو خارجياً على الأقل . ولهذا تكون الكوميديا أقرب الى الحياة الواقعية من الدراما . كلما كانت الدراما ذات عظمة ، كلما عمق التصنع الذي اضطر الشاعر الى إخضاع الواقع الحقيقي له لكي يستخرج المأسوي في حالة النقاء . وبالعكس في الكوميديا التي لا تنفصل عن الواقع الا في أشكالها الدنيا أي في المهزلة والمسخرة : فكلما ارتفعت الكوميديا وارتقت كلما تداخلت مع الحياة ؛ ويوجد في الحياة الواقعية مشاهد قريبة جداً من الكوميديا العالية بحيث يستطيع المسرح أن يتبناها دون أن يغير فيها كلمة .

يتبع ذلك ان العناصر ذات الصفة الهزلية تكون هي ذاتها في المسرح وفي الحياة . فما هي هذه العناصر ؟ لن نجد صعوبة في استخراجها :

لقد قيل كثيراً بأن العيوب الصغيرة في أقراننا وأشباهنا هي التي تضحكننا . واعترف بوجود قسم واسع من الحقيقة في هذا الرأي ، ومع ذلك فلا أستطيع أن اعتبره صحيحاً تماماً . أولاً ، في مجال العيوب ، يصعب رسم الحد الفاصل بين الخفيف والخطير : ربما ليس لأن الخطأ خفيف ، نضحك نحن منه ، بل لأنه يضحكننا نجده خفيفاً ، إذ ليس ما يُسْقِط في اليد كما الضحك . ولكن يمكن الذهاب الى أبعد ، والزعم أنه توجد عيوب نضحك منها مع معرفتنا بخطورتها : مثل ذلك بُخْل هارباغون . وأخيراً يجب الاقرار - وان كان يصعب قليلاً قوله - بأننا لا نضحك فقط من عيوب أمثالنا ، بل أيضاً ، في بعض الأحيان من ميزاتهم . إننا نضحك من أَلْسِست : ربما يقال ليست شهامة السست هي المضحكة ، بل الشكل الخاص الذي تتخذه الشهامة عنده ، وبالأجمال ، نوع من المثلية تشين شهامته . أصادق على ذلك تماماً ، ولكن ذلك لا يطعن في صحة كون هذه المثلية في أَلْسِست ، والتي نضحك نحن منها ، تجعل شهامته أهلاً للضحك . وهنا تكمن النقطة المهمة . وأخيراً نستنتج أن الهزل لا يدل دوماً على نقص ، بالمعنى الأخلاقي للكلمة ، واننا إذا أصررنا على وجود نقص ، ونقص خفيف وراء الهزل ، فإنما نتوجب الإشارة هنا إلى المعيار الدقيق المعتمد الذي يميز هنا الخفيف من الخطير .

الحقيقة ان الشخصية الهزلية تستطيع ، عند الضرورة ، أن تكون على وفاق مع الأخلاق الصارمة . ويتعين عليها فقط أن تتوافق مع المجتمع . ان صفة أَلْسِست هي صفة الانسان الشريف الكامل . ولكنه غير الأليف مع المجتمع ، وبهذا هو مضحك . إن العيب المرن يكون أصعب تهزئاً من

الفضيلة الجامدة . إن الجمود هو المشبوه في نظر المجتمع . وإذا فجمود أليست هو الذي يضحكنا ، رغم أن هذا الجمود يشكل هنا شهامة . ان من يعزل نفسه عن المجتمع يتعرض للتهزئة ، لأن الهزل يتكون ، في معظمه من هذه العزلة بالذات . وهكذا يُفسر كيف أن الهزل يتعلق في أغلب الأحيان بالأداب ، وبالأفكار- ولنحسم الكلمة ، انه يتعلق بأفكار المجتمع المسبقة .

وعلى كل ، يجب الاعتراف ، تشريفاً للبشرية ، بأن المثل الأعلى الاجتماعي والمثل الأعلى الأدبي لا يختلفان في الأساس . وإذا يمكننا أن نفترض ، كقاعدة عامة ، أن عيوب الغير هي التي تضحكنا- مع احتمال الاضافة بأن هذه العيوب إنما تضحكنا بسبب عدم تجانسها مع المجتمع ، لا بسبب عدم أخلاقيتها . يبقى إذاً أن نعرف ما هي العيوب التي يمكن أن تصبح مضحكة ، وفي أية حالات نعتبرها جدية جداً فلا تضحكنا .

ولكننا أجبنا على هذا السؤال ضمناً . فقلنا أن الهزل يتوجه الى الذكاء الخالص ، والضحك لا يتوافق مع الانفعال . صَوَّرَ لي أي عيب تشاء مهما كان خفيفاً : فإذا عرضته علي بشكل يستدعي محبتي أو خشيتي أو شفقتي ، فقد انتهى الأمر ، فلن أستطيع بعدها أن أضحك منه . وبالعكس اختر شيئاً عميقاً وعلى العموم مستردلاً : انك تستطيع أن تجعله مضحكاً ان نجحت أولاً ، وبالأعيب مناسبة ، ان تجعلني غير آبه . عندها لا أقول ان العيب يكون مضحكاً ؛ بل أقول انه عندها يمكن أن يكون مضحكاً . المهم أن لا يستثير انفعالي ، هذا هو الشرط الضروري فعلاً ، وإن لم يكن كافياً بالضرورة .

ولكن الشاعر الهزلي كيف يتصرف ليمنعني من الانفعال ؟ السؤال مخرج . ولتوضيحه ، يجب الالتزام بنظام من البحوث جديد نوعاً ما ، ويجب تحليل الود المصطنع الذي نحمله نحن تجاه المسرح ، ثم تحديد الحالات التي نقبل

فيها ، والحالات التي نرفض فيها ، تقاسم المباهج والأوجاع الخيالية . هناك فن هدهدة شعورنا واعداد الأحلام له ، كما يُفعل بالنسبة الى الإنسان المَنوم . وهناك فن أيضاً في تثبيط محبتنا في اللحظة المناسبة حيث يمكن أن تتدفق ، بحيث أن الوضع حتى ولو كان جدياً ، لا يُحمل على محمل الجد . هناك أسلوبان يظهر أنهما يسيطران على هذا الفن الأخير ، يطبقهما الشاعر الهزلي بصورة لا شعورية الى حد ما . الأول يقوم ، داخل نفسية الشخصية ، على عزل الاحساس الذي نعزوه اليها وجعل هذا، الإحساس، إن أمكن القول ، حالة طفيلية مزودة بوجود مستقل . على العموم ، ان الاحساس الزخيم يتغلب رويداً رويداً على كل الحالات النفسية الأخرى ويلونها بلونه : فإن نحن شاهدنا هذا الانطباع التدريجي ، فإننا ننتهي تدريجياً بأن ننطبع بذاتنا ونتأثر بانفعال مطابق ملائم . يمكن القول - لجوءاً الى صورة أخرى - ان الانفعال يكون دراماتيكياً ، انتقالياً . عندما تكون كل النغمات المرافقة متطابقة مع النغم الأساس . ولأن الممثل يرتعش بأكمله ، يستطيع الجمهور أن يرتعش بدوره .

وبالعكس ، في الانفعال الذي يتركنا لا مبالين ، والذي يصبح هزلياً ، يوجد تصلب يمنعه من الاتصال ببقية النفس حيث ينوجد هذا الانفعال . إن هذا التصلب قد يبرز ويتفاقم ، في لحظة معينة ، عبر حركات الدمية الشخص فيثير الضحك ، بعد أن كان من قبل يعاند مودتنا : فكيف نتحد مع نفس ليست منسجمة مع ذاتها ؟ يوجد في « البخيل » مشهد يلامس الدراما . ذلك هو مشهد المستقرض والمرابي اللذين لم ير أحدهما الآخر بعد ، فيلتقيان وجهاً لوجه فيجدان أن أحدهما هو الأب والآخر هو الابن . ونكون هنا حقاً في الدراما لو كان البخل والشعور الأبوي يتصادمان في نفس هارباغون ، [الأب] فيدخلان اليها تركيبة أصيلة الى حد ما . ولكن المقابلة ما ان انتهت

حتى ينسي الأب كل شيء . ولما قابل ابنه من جديد ، لم يشر ، إلاً لماماً ، الى هذا المشهد الخطير جداً : « وأنت ، يا بني ، الذي - غفرتُ له ، جلماً وعظماً ، القصة القريبة ، الخ » . لقد مرَّ البخل الى جانب الباقي دون أن يمسّه ، وأن يتأثر به ، بنوع من التناسي والسهو . فالبخل وان ترسخ في النفس ، وان أصبح المتحكم في المنزل ، فإنه قد بقي غريباً عنها . وأي بخل آخر سوف يكون بخلاً ذا طبيعة مأساوية . اننا نراه يجتذب اليه - ويمتص ، ويتمثل ، محولاً مغيراً ، - كل قوى الكائن : مشاعر محبة وود ، رغبات وكره ، عيوب وفضائل ، كل هذا يصبح مادة يعطيها البخل نوعاً جديداً من الحياة . ذلك هو - على ما يبدو - الفرق الأول الأساسي بين الكوميديا العالية والدراما .

وهناك نوع ثانٍ من الفرق ، أكثر ظهوراً وهو مشتق أيضاً من الأول . عندما تُصوِّر لنا حالة نفسية مع نية جعلها دراماتيكية ، أو فقط جعلنا نحملها على محمل الجد ، فإن [المؤلف] يوجهها تدريجياً نحو أعمال تعطيها المقياس الصحيح . وهكذا يخطط البخيل كل شيء بقصد الربح ، وان المراثي ، وهو يتظاهر بأنه لا ينظر إلا الى السماء ، يناور بمهارة شديدة على الأرض . ولا تتنافى الكوميديا ، بالتأكيد ، مع التركيبات من هذا النوع ؛ ولست بأخذ منها كبرهان إلا دسائس تارتوف . وهنا تشترك الكوميديا مع الدراما ، ولكي تختلف عنها وتتميز ، ولكي تمنعنا من الأخذ بالجدية ، الأمر الجدي ، وأخيراً لكي تهيئنا للضحك ، فإنها تستعمل وسيلة أعرفها بالصيغة التالية : بدلاً من تركيز اهتمامنا على الأفعال ، فهي توجهه ، أولاً ، نحو الاشارات . وأقصد بالإشارات هنا المواقف والأوضاع الذاتية والحركات وحتى الخطابات التي بها تظهر الحالة النفسية ، دونما هدف ، ودونما مكسب ، بفعل نوع من الحث الداخلي فقط . إن الحركة المعروفة هكذا تختلف تماماً عن العمل . العمل شيء

مُبْتَغَى ، وهو في جميع الأحوال حالةٌ وعي ، أما الحركة فبإدارة أوتوماتيكية .
في العمل ، الشخصُ كله يعطي ؛ في الحركة ، قسم معزول من الشخص
يعبر عن نفسه ، بدون علم ، أو على الأقل بمعزل عن الشخصية كلها .

وأخيراً (وهنا تكمن النقطة الأساسية) ، يكون العمل متناسباً تماماً مع
الاحساس الذي يوحى به ؛ هناك انتقال تدريجي من أحدهما الى الآخر ،
بحيث ان محبتنا أو كرهنا يمكن أن ينزلقا على طول الخيط الذاهب من
الاحساس الى الفعل . أو يزدادا اهتماماً بصورة تدريجية . ولكن الحركة تتميز
بشيء من التفجر ، الذي يوقظ حساسيتنا المستعدة للاستسلام للهدفة ،
والذي يمنعنا - وهو يردنا هكذا الى ذاتنا - أن نأخذ الأشياء على محمل الجد .
وإذن ، منذ أن ينصب اهتمامنا على الحركة ، لا على الفعل ، نكون في
الكوميديا . إن شخصية تارتوف تنتمي الى الدراما بأفعالها : وعندما نلتفت
أصلاً إلى حركاته نجده مضحكاً . ونذكر دخوله الى المسرح قائلاً : « لوران ،
اربط مسوحي (1) بسوطي » قال هذا ، وهو يعلم أن دورين تسمعه . وليكن
معلوماً أنه سوف يتكلم أيضاً هكذا ولولم تكن هناك . لقد اندمج تماماً في دوره
كمخادع ، حتى أنه يلعبه باخلاص ان جاز القول . في هذا ، وفي هذا فقط ،
يستطيع أن يصبح هزلياً . ودونما هذا الاخلاص المادي ، وبدون المواقف
والكلام الذي حولته ممارسة طويلة للنفاق ، عنده ، إلى حركات طبيعية ،
إذن لأصبح تارتوف كريهاً فقط ، لأننا عندئذ لا نفكر إطلاقاً إلا بما هو مقصود
في مسلكه . وهكذا نفهم أن العمل شيء أساسي في الدراما ، وهو ثانوي في
الكوميديا .

في الكوميديا ، نشعر أنه كان بإمكاننا أيضاً أن نختار أي وضع آخر حتى

(1) هنا المعنى خاص : المسوح لباس الشعر والسوط أداة تعذيب . ويقصد المخادع أن يظهر أمام من
يريد خداعها إظهار ورعه .

نصور الشخصية : ولو حصل هذا لظل أيضاً نفس الرجل ، إنما في وضعية مختلفة . ولا يكون لدينا هذا الانطباع في الدراما . هنا الشخصيات والأوضاع ملتحمة معاً ، أو بقول أفضل ، تشكل الأحداث جزءاً لا يتجزأ من الأشخاص ، بحيث ان الدراما إذا قصت علينا قصة أخرى - ومهما حفظنا للممثلين نفس الأدوار - فإننا نكون حقاً أمام أشخاص آخرين .

والخلاصة ، إننا رأينا أن الشخصية تستطيع أن تكون طيبة أو خبيثة ، لا يهم : فإذا كانت غير اجتماعية ، قد تصبح مضحكة . ونرى الآن أن خطورة الحالة لا تهم كثيراً جداً : فسواء كانت خطيرة أو خفيفة ، فهي تستطيع أن تضحكنا ان نحن رتبناها بشكل لا نكون منفعلين معها . إن « لا اجتماعية » الشخصية ، و« لا احساسية » المشاهد ، هما ، بالاجمال ، الشرطان الأساسيان للهزل . وهناك شرط ثالث ، داخل في الشرطين الآخرين . ونقصد من كل تحليلاتنا أن نستخلصه : وهو « الأوتوماتية » . لقد بيّنا منذ بداية هذا العمل ، ولم ننفك نرد الانتباه الى هذه النقطة : لا يوجد شيء مضحك بصورة أساسية إلا ما هو منجز بصورة أوتوماتية . في عيب ، في خِلْعة حتى ، يكون الهزل هو الشيء الذي من خلاله تستسلم الشخصية ، دون أن تعلم ، لحركة لا إرادية ، أو لكلمة غير واعية : إن كل سهو مضحك . وكلما كان السهو عميقاً ، كلما ارتقت الكوميديا . إن السهو المنهجي مثل سهو دون كيشوت هو أكثر ما يمكن تصوره في العالم من هزل : انه الهزل بالذات ، مستقياً من أقرب ما يمكن من المنبع . خذ أية شخصية هزلية أخرى . مهما كانت واعية - ما أمكنها ذلك - لما تقول ولما تفعل ، فإذا كانت مضحكة ، فذلك أنه يوجد في شخصها مظهر تجهله ، ناحية تهزب اليها من ذاتها : ومن هذا الناحية فقط هي تضحكنا . إن الكلمات المضحكة بعمق هي الكلمات البسيطة الساذجة حيث يظهر العيب عارياً : كيف ينكشف الشخص هكذا ،

لو أنه كان قادراً على رؤية نفسه وعلى محاكمتها ؟

وليس من النادر أن يشجب الشخص المضحك سلوكاً ما بكلمات عامة ثم يقع فيه ؛ مثاله : معلم م . جوردان الفلسفة ، وهو يغضب غضباً شديداً بعد أن « حاضر » ضد الغضب . وفاريوس يسحب الأشعار من جيبه ، بعد أن كان سخر من منشدي الأشعار ، الخ .

إلى ماذا يمكن أن تهدف هذه التناقضات ، غير جعلنا نلحس باليد لا وعي الشخصيات ؟ عدم الانتباه للذات ، وبالتالي عدم الانتباه الى الغير ، هذا ما نجده دائماً . وان تفحصنا الأشياء من قرب ، نر أن اللاانتباه يلتبس ، بالضبط هنا ، مع ما نسميه « اللااجتماعية » . إن سبب التيبس « التشدد » الأول والأهم ، هو إهمال النظر حولنا وخاصة في ذاتنا : كيف نقولب شخصيتنا مع شخصية الغير ، إن نحن لم نبدأ بالتعرف على الآخرين وبالتعرف على الذات أيضاً ؟ التصلب ، الأوتوماتية ، السهو ، اللااجتماعية ، كل هذا يتداخل ، ومن كل هذا يتألف هزل الشخصية .

والخلاصة ، إن تَرَكْنَا جانباً ، في الشخص البشري ، ما يهم إحساسنا ، وما ينجح في حملنا على الانفعال ، فإن الباقي يمكن أن يصبح هزلاً . ويكون الهزل متناسباً بصورة مباشرة ، مع مقدار التصلب الظاهر فيه . لقد وضعنا هذه الفكرة منذ بداية عملنا . وتثبتنا منها من خلال نتائجها الرئيسية . وطبقناها على تعريف الكوميديا . والآن علينا أن نتعمق أكثر فيها ، وان نبين كيف أنها تمكثنا أن نحدد المكان الصحيح للكوميديا داخل الفنون الأخرى .

في معنى من المعاني ، يمكن القول أن كل « شخصية » هي هزلية ، يشترط أن نفهم من كلمة « شخصية » ما هو « جاهز » في شخصنا ، أي ما هو فينا

بحالة الأوالية ، التي ما ان تبدأ أو تنطلق ، فإنها تكون قادرة على العمل بشكل أوتوماتيكي . إن هذا يكون ، - إن شئت - ان هذا يقوم على ما يمكن أن نكرر به أنفسنا . وهذا يكون أيضاً ، بالتالي ، فيما يمكن لآخرين أن يقلدونا فيه (أن يكررونا فيه) . إن الشخصية الهزلية هي « نمط » وبالمقابل - إن التشابه مع نمط ما فيه شيء من الهزل . قد نعرف شخصاً من خلال زيارته كثيراً وطويلاً دون أن نكتشف فيه شيئاً ماضحكاً : ولكننا إذا استغلينا تقارباً فيه ، ولو عارضاً ، كي نطبق عليه اسماً مشهوراً : اسم بطل دراما أو رواية ولو للحظة على الأقل ، فإنه يبدو في نظرنا مضحكاً . في حين أن هذه الشخصية في الرواية قد لا تكون مضحكة . ولكن المضحك هو التشبه بها . إنه هزل الغفلة عن الذات . ومن الهزل ، الولوج ، في إطار مُعَدِّ ومُهيأ ، وما هو مضحك فوق ذلك كله ، هو الانتقال - بالذات - الى حالة الاطار ، حيث يلج الآخرون بسهولة وهذا ما يسمى بالتجمد في الشخصية .

إن تصوير الشخصيات ، أي الأنماط العامة ، هو غرض الكوميديا الرفيعة . وقد قلنا ذلك مرات عدة ، ولكننا نصرُّ على تكراره ، لأننا نعتقد أن هذه الصيغة تكفي لتعريف الكوميديا . إن الكوميديا لا تكتفي فقط بأن تعرض علينا أنماطاً عامة ، بل هي ، برأينا ، النمط الوحيد ، بين كل الفنون ، الذي يهدف الى العام ، بحيث اننا - بعد أن حددنا هذا الهدف - نكون قد قلنا ما هي ، وقلنا ما لا يمكن للباقى أن يكونه . ولإثبات أن جوهر الكوميديا هو هذا بالذات ، وانها تتعارض في هذا مع الكوميديا ، ومع الدراما ، ومع الأشكال الأخرى من أشكال الفن ، يتوجب الابتداء بتعريف الفن فيما هو الأعلى منها : وبعدها ننزل تدريجاً نحو الشعر الهزلي ، فنرى أنه يقع عند حدود الفن والحياة ، وأنه يتميز بصفته العمومية ، عن بقية الفنون . اننا لا نستطيع أن نسترسل هنا في مثل هذه الدراسة الواسعة . ولذا يتوجب

علينا مع ذلك أن نرسم خطتها ، تحت طائلة إهمال ما هو جوهري ، برأينا ، في المسرح الهزلي .

ما هو غرض الفن ؟ إذا جاء الواقع مباشرة يصفع حواسنا ووعينا ، وإذا استطعنا أن نكون على اتصال مباشر مع الأشياء ومع أنفسنا ، اعتقد تماماً أن الفن يصبح غير ذي جدوى ، أو بالأحرى ، اننا نكون جميعاً فنانين ، لأن نفسنا ترتعش عندها باستمرار تجاوباً مع الطبيعة . إن عيوننا ، مرفودةً بذاكرتنا ، تقتطع من الفضاء ، وتثبت في الزمن لوحاتٍ لا تقلد . إن نظرنا يلتقط عابراً ، محفورةً في الرخام الحي من الجسم البشري ، أجزاءً من تمثالٍ ، جميلةً كجمال المثال النحتي القديم . إننا نريد أن نغني في قرارة أنفسنا - بنوع من الموسيقى الضاحكة أحياناً ، الشاكية أكثر الأحيان ، إنغا الأصيلة دائماً - الميلوديا التي لا تتوقف ، ميلوديا حياتنا الداخلية . كل هذا قائم حولنا . وكل هذا قائم فينا ، ومع ذلك لا شيء من كل هذا نشاهده نحن بصورة واضحة . بين الطبيعة وبيننا ، ماذا أقول ؟ بيننا وبين وعينا الذاتي ، تقوم غشاوة ، غشاوة سميكة في نظر عامة الناس ، وغشاوة رقيقة ، شبه شفافة ، في نظر الفنان والشاعر . أية جنية نسجت هذه الغشاوة ؟ هل فعلت ذلك عن خبث أو عن صداقة ؟ لا بدّ من العيش ، والحياة تقضي أن ندرك الأشياء في الرابط الذي يربطها باحتياجاتنا . الحياة تقوم على التصرف . العيش يعني عدم القبول - من الأشياء - إلا بالانطباع المفيد من أجل التجاوب معها بالتصرفات المناسبة : إن الانطباعات الأخرى يجب أن تغيب أو أن لا مل إلينا إلا غامضة . إني أنظر وأعتقد اني أرى ، إني اتنصت وأعتقد إني مع ، إني أدرس نفسي ، وأعتقد إني أقرأ في أعماق قلبي . ولكن ما أرى ما أسمع من العالم الخارجي ، هو فقط ما تستخرجه حواسي منه لكي تنير سلوكي ؛ ما أعرفه عن نفسي ، هو هذا الذي يعوم على السطح ، ما يشارك

في الفعل . إن حواسي وان وعيي لا يعطيني عن الواقع إلا تبسيطاً عملياً . في الرؤية التي يعطيني إياها عن الأشياء وعن نفسي ، تمحى الفروقات التي لا تفيد الانسان ، والمشابهات المفيدة للانسان تبرز وتتركز ، تُرسم لي دورياً ، بصورة مسبقة فيها يلتزم عملي . هذه الدروب هي الدروب التي مرت بها البشرية قبلي . إن الأشياء قد صُنفت من أجل المكسب الذي يمكنني استخلاصه منها . وهذا التصنيف هو الذي أدرك ، أكثر من إدراكي للون ولشكل الأشياء . لا شك أن الانسان هو أعلى بكثير من الحيوان حول هذه النقطة . ومن النادر أن تميز عين الذئب بين العنز والحمل ، إنها ، بالنسبة الى الذئب ، فريستان متشابهتان ، سهل الامساك بهما ، متساويتان من حيث لذة الالتهام ، أما نحن فنميز بين العنز والخاروف ، ولكننا هل نميز بين عنزة وعنزة ، بين حمل وحمل ؟ إن فردانية الأشياء والكائنات تفوتنا في كل مرة لا تكون لنا مصلحة مادية في إدراك هذه الفردانية . وحيث نلاحظ هذا (كما عندما نميز بين رجل ورجل) ليست الذات الفردية هي التي تدركها عيننا ، أي نوعاً من الانسجام الأصيل تماماً في الأشكال وفي الألوان ، بل ندرك سمة أو سمتين تسهلان التعرف العملي .

وأخيراً ، وإجمالاً للقول ، إننا لا نرى الأشياء بالذات ؛ اننا نكتفي ، في أغلب الأحيان بقراءة العناوين الملصوقة عليها . هذه النزعة ، المنبثقة عن الحاجة ، قد تركزت تحت تأثير الكلام . لأن الكلمات (باستثناء أسماء الاعلام) تدل على أنواع . والكلمة ، التي لا تذكر من الشيء إلا وظيفته الأكثر شيوعاً ، ومظهره التافه ، تتسرب بين الشيء وبيننا ، فتغطي شكله عن أعيننا إذا لم يختبئ هذا الشكل وراء الاحتياجات التي خلقت الكلمة بالذات . وليست الأشياء الخارجية فقط ، بل انها أيضاً حالاتنا الخاصة النفسية ، هي التي تهرب منا ، بما فيها من حميمية ، ومن ذاتية شخصية ،

ومن مُعاشٍ أصيل . عندما نشعر بالحب أو بالكره ، عندما نشعر بالسعادة أو بالحزن ، هل هو إحساسنا تماماً هو الذي يصل إلى وعينا ومعه آلاف التلاوين الهاربة ، وآلاف الإيقاعات العميقة التي تجعل منه شيئاً لنا ذاتياً خالصاً ؟ لو حصل ذلك لنا عندها نصبح جميعاً رواة قصص ، وشعراء ، وموسيقيين . ولكن في أغلب الأحيان ، إننا لا ندرك من حالتنا النفسية الا انتشارها الخارجي . إننا لا ندرك من أحاسيسنا إلا مظهرها اللاشخصي ، المظهر الذي سجله الكلام ، مرة واحدة وأخيرة ، لأنه ، تقريباً ، هو ذاته ، في نفس الظروف ، بالنسبة إلى كل الناس . وهكذا ، وحتى في ذاتنا الفردية ، تهرب منا ذاتيتنا . اننا نتحرك ضمن العموميات وضمن الرموز ، كما في حقل مغلق ، حيث تقاس قوتنا ، بجذواها ، بالقوى الأخرى . وبعد أن يَسْبَعُنَا العمل ، ويجتذبنا ، لخيرنا العميم ، الى الأرض التي اختارها لنفسه نأخذ بالعيش في منطقة وسط بين الأشياء وبيننا ، خارج الأشياء ، وخارج أنفسنا بالذات . ولكن من بعيد لبعيد ، وبالسهو ، تحيي الطبيعة نفوساً أكثر انفصالاً عن الحياة . أنا لا أتكلم عن هذا الانفصال (العزوف) المراد ، المتعقلن ، المنهجي ، الذي هو من صنع التفكير والفلسفة . إني أتكلم عن عزوف طبيعي ، فطري في بنية الحس أو الوعي ، والذي يبرز حالاً ، بشكل بكوري بتولي ، نوعاً ما ، عزوف عن الرؤية وعن السماع أو عن التفكير .

فإذا كان العزوف كاملاً ، وإذا لم توافق النفس على العمل بأي من مداركها ، فإنها تكون نفس (روح) فنان لم يشاهد الدهر مثله . إنها تبتدع في كل الفنون بأن واحد ، أو بالأحرى انها تذيبها جميعاً في فن واحد . إنها ترى كل الأشياء في نقائها الأصيل ، الأشكال والألوان والأصوات في العالم المادي ، كما ترى لطائف حركات الحياة الداخلية . ولكن هذا مطلب كبير على الطبيعة . بالنسبة الى أولئك الأفراد من بني البشر ، الذين جعلتهم الطبيعة

فنانين ، إن ذلك قد تمَّ عرضاً ، ومن جانب واحد أزاحت [الطبيعة] الغشاوة . إنها في اتجاه واحد نسيت أن تربط الإدراك بالاحتياج . ولما كان كل اتجاه يتوافق مع ما نسميه حاسةً ، فإنه بوحدةٍ من هذه الحواس ، وبهذه الحاسة فقط يكون الفنان عادةً مبدعاً في فنه . من هنا ، في الأصل نشأة وتنوع الفنون . ومن هنا أيضاً التخصص في الاستعدادات الفطرية . فالفنان المبدع يتعلق بالألوان والأشكال ، وهو يحب اللون للون ، والشكل للشكل ، كما يدركها لذاتها لا لنفسه . إنه يرى الحياة الداخلية للأشياء تتجلى عبر أشكالها وألوانها . فيجعلها تدريجاً في متناول إدراكنا الذي يكون في أول الأمر مشدوهاً . فالفنان يقتلعنا ، ولو لبرهة على الأقل ، من مسبقاتنا الفكرية المتعلقة بالشكل وباللون والتي تحشر نفسها بين عيننا وبين الواقع . وبهذا يحقق الفنان المبدع أعلى طموحات الفن ، وهو كشف الطبيعة أمامنا ولنا .

- هناك فنانون آخرون ينظرون على أنفسهم . وتحت الاف الأعمال الناشئة التي ترسم في الخارج إحساساً ، ووراء الكلمة التافهة والاجتماعية التي تعبر عن حالة نفسية فردية ، يفتش هؤلاء الفنانون عن الحالة النفسية البسيطة والنقية . ولكي يحملونا على بذل نفس الجهد في أنفسنا ، يمهررون في آراءتنا شيئاً مما رأوه : وذلك بترتيبات منسقة للكلمات التي تنتظم معاً ، وتنتعش بحياة أصيلة ، يقولون لنا ، أو بالأحرى يوحون إلينا ، بأشياء لا يستطيع الكلام التعبير عنها .

- ويقوم آخرون بالحفر في الأعماق الأعماق أيضاً . وتحت هذه الافراح والأحزان التي يمكن أن تترجم عند الضرورة بالكلام ، يدركون شيئاً ليس له أي رابط مشترك بالكلام ، يدركون بعض أنساق من الحياة ومن التنفس ، هي ، في أعماق الانسان أكثر عمقاً من مشاعره الأكثر عمقاً ؛ انهم يدركون

شيئاً هو قانون حي ، يتغير مع كل شخص بحسب إحباطه ، أو حماسه ،
بحسب حسراته وآماله .

وباستخلاص ثم تكبير هذه الموسيقى يفرضونها على انتباهنا ، انهم
يعملون على إدخالنا فيها ، بدون إرادة منا ، كما يدخل المارة في حفلة رقص .
وبهذا يحملوننا أيضاً ، داخل أعماقنا ، على زعزعة شيء ما كان ينتظر اللحظة
ليرتعش .

- وهكذا سواء كان الفن تصويراً أو نحتاً أو شعراً أو موسيقى ، ليس من
هدف له الا استبعاد الرموز المفيدة عملياً ، واستبعاد ، العموميات المقبولة
اصطلاحاً واجتماعياً ، وبالتالي استبعاد كل ما يحجب عنا الحقيقة والواقع ،
لكي نكون وجهاً لوجه مع الواقع بالذات . وينتج عن سوء الفهم حول هذه
النقطة ، جدل بين الواقعية والمثالية في الفن . فالفن بالتأكيد ، ليس إلا رؤية
مباشرة للواقع . ولكن هذا النقاء في الإدراك يقتضي مقاطعة الاصطلاح
المفيد ، ويقتضي لا مبالاة فطرية متموضعة خصوصاً ، لا مبالاة بالحس أو
بالوعي ، وأخيراً نوعاً من التعالي على المادية في الحياة ، وهو ما سمي دائماً
بالمثالية . بحيث يمكن القول ، دون اللعب إطلاقاً على معنى الكلمات ، ان
الواقعية تكون في الانتاج عندما تكون المثالية في النفس أو الروح ، وانه بقوة
المثالية فقط ، يعاد الاتصال مع الواقع .

إن الفن الدراماتيكي لا يشذ عن هذا القانون . إن ما تبحث عنه الدراما ،
وتجره الى تحت الضوء ، هو واقع عميق مغطى عنا ، في أكثر الأحيان لمصلحتنا
بالذات ، بفضل ضرورات الحياة . ما هو هذا الواقع ؟ وما هي هذه
الضرورات ؟ كل شعر يعبر عن حالات نفسية ولكن من بين هذه الحالات ،
توجد حالات تتولد بشكل خاص من اتصال الانسان بأشباهه . وهذه

الحالات هي الاحاسيس الأكثر زخماً والأكثر عنفاً أيضاً . وكما تتداعى الكهرباء وتتراكم بين صفيحتي المكثف الذي يولد الشرارة ، كذلك ان تواجد البشر فيما بينهم يولد تجاذبات وتنافرات عميقة ، وانشقاقات كاملة في التوازن ، كما يولد أخيراً هذه الكهرباء في النفس التي هي الوجد . وإذا استسلم الانسان لحركة طبيعته الحساسة ، وإذا انعدم القانون الاجتماعي والقانون الأخلاقي ، تصبح انفجارات المشاعر العنيفة هي الشيء المعتاد في الحياة . ولكن من المفيد استبعاد هذه الانفجارات . من الضروري أن يعيش الانسان في المجتمع ، وأن يخضع نفسه بالتالي للقواعد . وما تقضي به المصلحة ، وما يأمر به العقل : هناك واجب ، وسبيلنا ومصيرنا الخضوع لهذا الواجب . تحت هذا التأثير المزدوج تكونت بالنسبة الى النوع البشري ، قشرة سطحية من الاحاسيس ومن الأفكار نزعنا الى الجمود ، وأرادت على الأقل ، أن تكون مشتركة بين كل الناس ، وتغطي - ان لم تكن تمتلك القوة على الإخماد - النار الداخلية في الأهواء الفردية . إن تقدم البشرية البطيء نحو حياة اجتماعية يزداد ميلها الى السلام ، قد مَتَنَ هذه الطبقة السطحية ، بصورة تدريجية ، كما كانت حياة كوكبنا بالذات جهداً طويلاً لِيُغَطِّي بقشرة صلبة وباردة ، الكتلة الذائبة من المعادن في حالة الغليان . ولكن هناك انفجارات بركانية . ولو أن الأرض كائن حي ، كما تصورها الميتولوجيا ، فلربما أحبت ، وهي ترتاح ، أن تحلم بهذه الانفجارات المفاجئة ، لأنها تتمكن من أن تدرك فجأة ماهية أعماقها . إن لذة من هذا النوع تقدمها لنا الدراما . تحت الحياة الوداعة ، البرجوازية التي كونها المجتمع والعقل ، تحرك الدراما فينا شيئاً ما ، لا ينفجر لحسن الحظ ، ولكنه يشعرنا بالتوتر الداخلي . إن الدراما تعطي الطبيعة الفرصة لكي تنتقم من المجتمع . وهي تسير ، مرة ، بخط مستقيم نحو الهدف ؛ انها تستدعي ، من الأعماق نحو السطح ، الأهواء التي تفجر كل شيء . وتارة أخرى تتعرج وتنحرف ، كما تفعل الدراما المعاصرة غالباً .

فتكشف لنا ، ببراءة تكون أحياناً معقدة ، تناقضات المجتمع مع ذاته .
فتبالغ بما هو مصطنع في القانون الاجتماعي . وهكذا وبوسيلة منحرفة ،
تذيب الغشاء هذه المرة ، فتجعلنا نلمس العمق . ولكن الدراما في الحالتين ،
سواء أضعفت المجتمع أو قوّت الطبيعة ، تلاحق نفس الهدف وهو تمكيننا من
اكتشاف قسم مخبوء من ذاتنا ، وهذا يمكن أن يسمى بالعنصر المأسوي في
شخصيتنا يتكون لدينا هذا الانطباع عند الخروج من مشاهدة دراما جميلة . ما
لفتنا ، ليس ما حُكي لنا عن الغير بقدر ما عُمِلَ من أجل أن نرى من أنفسنا :
عالمًا كاملاً مختلطاً من الأشياء الغامضة أرادت أن تكون ، ولكنها ، لحسن
حظنا ، لم تتحقق . ويبدو أيضاً أن نداءً قد وُجّهَ فينا الى ذكريات وراثية ،
غاية في القدم ، وغاية في العمق وغاية في البعد عن حياتنا الحالية ، حتى لتبدو
لنا هذه الحياة ، بخلاف بعض اللحظات ، كشيءٍ غير واقعي أو شيء
مصطنع ، يجب أن نتعلمه من جديد . وإذاً انه لواقع أكثر عمقاً هو ما ذهبت
الدراما تبحث عنه تحت المكتسبات الأكثر فائدة ، إنه هذا الفن الذي له نفس
هدف الفنون الأخرى .

ينتج عن ذلك أن الفن يهدف دائماً الى الفردي . إن ما يثبته المصور على
الشاشة ، هو ما شاهده في مكان ما ، ذات يوم ، ذات ساعة ، بألوان لن ترى
أبداً . إن ما يُغْنِيهِ الشاعرُ ، هو حالة نفسية كانت حالته وحالته فقط ، وهي
أن تتكرر أبداً . وما يضع الكاتب الدرامي أمام أعيننا ، انه مسار نفس ، إنها
ككة حية من الأحاسيس والأحداث ، إنه شيء ما قد عرض ذات مرة ولكن
يحدث ثانية أبداً .

ومهما جهدنا في إعطاء هذه الأحاسيس أسماء عامة ؛ فهي لن تكون نفس
الشيء في نفسٍ أخرى . إنها فردانية خاصة . من هنا كان دخولها في الفن ،

لأن العموميات ، والرموز والأنماط بالذات ان شئت ، هي العملة المتداولة
لادراكنا اليومي . من أين يأتي سوء الفهم حول هذه النقطة ؟

السبب في هذا الأمر هو اننا نخلط بين شيئين مختلفين تماماً : عمومية
الأشياء وعمومية الأحكام التي نصدرها حولها . ان إحساساً ما يُعترف عموماً
بصحته ، لا يقتضي وجوباً ان يكون إحساساً عاماً . ليس أغرب من شخصية
هاملت . فإذا كان يشبه من بعض الجوانب أشخاصاً آخرين ، فليس في هذا
ما هو مهم بالنسبة اليها . ولكنه مقبول عالمياً ويعتبر انه حي بالإجماع . وكذلك
الحال بالنسبة الى منتجات الفن الأخرى . إن كلاً منها فريد ، ولكنه - أن حَلَّ
طابع العبقرية - ينتهي بأن يصبح مقبولاً من قبل الجميع ، لماذا يُقبل ؟ وإذا
كان فريداً في نوعه ، فما هي العلامة التي تدل على أنه واقعي ؟ ، اننا نتعرف
عليه ، حسب ما اعتقد ، بالجهد الذي يحملنا على بذله ، في أنفسنا ، لكي
نراه بدورنا وبإخلاص ، من جهتنا أيضاً . إن الاخلاص اتصالي . إن ما رآه
الفنان ، لن نراه نحن ، بدون شك ، على الأقل كما رآه هو تماماً ؛ ولكنه إذا
كان قد رآه كما هو فالجهد الذي بذله لازالة الغشاوة يفرض نفسه علينا
تقليداً . إن عمله هو مثّل نستخدمه كدرس . وبفعالية الدرس تقاس حقيقة
العمل . إن الحقيقة تحمل إذن في ذاتها قوة اقناع وقلب وتبديل ، وهذه هي
سمتها التي بها تعرف . وكلما كان العمل أكبر ، وكلما كانت الحقيقة المرتقبة
أعمق ، كلما كان توقع الأثر منها أكبر ، وأيضاً ، كلما ازداد نزوع هذا الأثر لأن
يكون كونياً شاملاً . إن الشمولية هنا تكون في الأثر المحدث ، وليس في
السبب .

ويختلف غرض الكوميديا عن هذا تماماً . هنا العمومية موجودة في العمل
بالذات . إن الكوميديا تصور شخصيات ، التقيناها ، أو نلتقيها أيضاً في

طريقنا ، انها تذكر مشابهاً . وهي تهدف الى أن تضع تحت أعيننا أنماطاً .
وهي تخلق حتى - عند الضرورة - أنماطاً جديدة - وبهذا ، تختلف عن بقية
الفنون الأخرى .

إن عنوان « الكوميديات الكبرى » بالذات له دلالة . فكارة البشر ،
والبخيل ، والمقامر ، والساهي ، الخ هذه أسماء أنواع ؛ وحيث يكون
للكوميديا « الشخصية » عنوان بإسم علم ، فإن هذا الاسم العلم ، يتحول
بسرعة ، نظراً لثقل محتواه ، الى حقل الأسماء العادية . فنقول « تارتوف »
للدلالة على المرائي ، في حين لا نقول « فيدر » [للدلالة على حب السفاح]
ولا بوليكت [للدلالة على الاستشهاد] .

ويشكل خاص ، قلماً يخطر ببال شاعر مأسوي أن يجمع حول الشخصية
الرئيسية شخصيات ثانوية ، تشكل ، إن جاز القول ، نسخاً « طبق الأصل »
مبسطة . إن بطل التراجيديا هو شخصية فردية فريدة في نوعها . ويمكن
تقليدها ، ولكن عندها ، ننتقل ، عن وعي أو غير وعي من المأسوي الى
الهزلي . إن أحداً لا يشبهه لأنه هو لا يشبه أحداً . وبالعكس إن غريزة رائعة
تحمل الشاعر الهزلي - عندما يكون قد ركب شخصيته الرئيسية ، - على جعل
شخصيات أخرى تدور حول الأولى ولها نفس السمات العامة . الكثير من
الكوميديات يحمل كعنوان اسم جمع أو كلمة ذات دلالة جماعية مثل
« المتحذلقات السخيفات » ، « النساء العالمات » ، « عالم الضجر » إلخ .
والكثير من اللقاءات يضم على المسرح أشخاصاً متنوعين يقدمون نفس النمط
الأساسي . ويكون من المفيد تحليل هذا المنحى في الكوميديا . إننا نجد
فيها ، أولاً ، وربما ، الاحساس المسبق بحدث أشار إليه الأطباء ، وهو أن
غير الموزونين من نفس النوع ، يجذبهم جاذب خفي نحو التفتيش عن بعضهم
البعض . دون أن يكونوا متسبين الى الطب ، باعتبار الشخصية الهزلية تكون

عادة - كما بينا - شخصاً ساهياً ، ومن هذا السهو الى فقد التوازن تماماً يتم الانتقال بشكل غير محسوس . ولكن هناك سبب آخر أيضاً . إذا كان غرض الشاعر الهزلي أن يقدم لنا أنماطاً ، أي شخصيات يمكن أن تتكرر ، فكيف يصل الى غرضه بصورة أفضل من أن يقدم لنا من نفس النمط عدة نماذج مختلفة ؟ إن عالم النباتات لا يتصرف بغير هذا ، عندما يعالج نوعاً من الأنواع . فهو يحدد ويصف مختلف أشكاله .

هذا الفرق الأساسي بين التراجيديا والكوميديا ، الأولى تتعلق بالأفراد ، والأخرى بالأنواع ، يترجم بكيفية أخرى أيضاً . إنه يظهر في التصميم الأول للعمل . وهو يظهر ، منذ البداية ، من خلال منهجين في الملاحظة مختلفين تماماً .

مهما بدا هذا الزعم مستهجنًا ، فنحن لا نعتقد أن مراقبة الرجال الآخرين ضرورة للشاعر المأسوي . أولاً ، في الواقع ، نجد أن شعراء كباراً جداً عاشوا حياة منكشمة جداً ، بورجوازية جداً ، دون أن تتاح لهم الفرصة لكي يروا فيما حولهم انطلاقة الأهواء التي قاموا بوصفها بأمانة ، ولكن ، لو افترضنا ، أنهم تسنت لهم المشاهدة ، نتساءل هل كانت افادتهم الشيء الكثير؟ الشيء الذي يهمنا ، هنا ، في عمل الشاعر ، هو رؤيته لبعض الحالات النفسية العميقة جداً أو لبعض الصراعات الداخلية تماماً . ولكن هذه الرؤية ، لا يمكن أن تتم من خارج . فالنفوس ليست قابلة للاختراق بعضها من بعض . اننا لا نشاهد من خارج إلا بعض اشارات العشق . نحن لا نؤولها . - وان فعلنا فبشكل ناقص - إلا عن طريق المقارنة مع ما أحسنا به بأنفسنا . إن ما نحسه هو أساسي ، ونحن لا نستطيع أن نعرف بعمق إلا قلبنا - هذا عندما نتوصل الى معرفته . فهل يعني هذا ان الشاعر قد جرب ما وصف ، وانه مرُّ بأوضاع شخصياته وانه عاش حياتهم الداخلية ؟ هنا أيضاً

تقدم لنا حيوات الشعراء تكذيباً . كيف نفترض أن ذات الانسان كان ماكبث ، واوتولو (عطيل) وهاملت ، والملك لير وكثيرين غيرهم أيضاً ؟ ولكن ربما يجب التمييز هنا بين الشخصية التي كناها والشخصية التي كان يمكن أن نكونها . إن شخصيتنا هي أثر من اختيار يتجدد باستمرار . هناك نقاط تفرع (على الأقل ظاهرياً) على طول طريقنا ، ونحن نشاهد تماماً الكثير من الاتجاهات الممكنة ، وإن كنا لا نستطيع اتباع غير طريق واحد . فن التراجع الى الوراء ، وفي تتبع الاتجاهات المرتقبة حتى الأخير ، يقوم بالضبط الخيال الشعري . أوافق تماماً على أن شكسبير لم يكن لا ماكبث ولا هاملت ، ولا أوتلو (عطيل) ؛ ولكنه كان يمكن أن يكون هذه الشخصيات المتنوعة لو أن الظروف من جهة ، وتوافق إرادته من جهة أخرى ، قد أديا وأوصلا الى حالة الانفجار العنيف ، هذا الشيء الذي لم يكن عنده إلا دفعة داخلية . إن قولنا هذا يعني تجاهلاً غريباً لدور الخيال الشعري : وهو ان نعتقد أن الشاعر يؤلف ابطاله من قطع مستعارة من هنا وهناك ، من حوله ، كما هو الحال عند خياطة ثوب المهرج المرقع (أرلكان) . من هذا لا تخرج الحياة . ان الحياة لا تؤلف . انها تسمح فقط بالنظر اليها . إن الخيال الشعري - لا يمكن أن يكون إلا رؤية أكمل ، للواقع . واذا كانت الشخصيات التي يبتدعها الشاعر تعطينا انطباع الحياة ، فذاك لأنها تمثل الشاعر نفسه ، الشاعر المتعدد ، الشاعر الذي يغوص الى أعماق ذاته من خلال مراقبة داخلية قوية لدرجة أنه يدرك المحتمل في الواقع ، ثم يستعيد ، لكي يصنع منه عملاً كاملاً ، ما تركته الطبيعة فيه ، بحالة الرسم أو التخطيط أو مجرد مشروع .

شيء آخر تماماً هو نوع الملاحظة التي تولد الكوميديا . انها ملاحظة خارجية . مهما كان الشاعر الهزلي فضولياً حشرياً بالنسبة الى سخريات الطبيعة البشرية ، فهو لا يذهب حسب ما اعتقد ، الى حد التفتيش عن

سخافاتہ الذاتیة . علماً بأنه لن یجدها : إننا لسنا مضحکین إلا من تلك الزاویة فی شخصیتنا التي تختفی عن وعینا . وإذاً فی الرجال الآخرین تتمرن هذه الملاحظة - المراقبة . ولكن من هنا بالذات تأخذ الملاحظة طابع العمومیة ، الذي لا یتاح لها عندما تُسلطُ علی الذات . لأن الملاحظة حین تتموضع عند السطح ، لا تبلغ الا الغشاء ، إلا ظاهر الأشخاص ، ولهذا فالكثیر منها ، یتصل ویوشك أن یتشابه . وهي لا تذهب إلى أبعد ، وحتى عندما تستطیع ذلك ، فهي لا تریده ، لأنها لا تكسب شیئاً منه . إن الدخول بعمق فی الشخصیة ، وربط الأثر الخارجی بأسباب جد حمیمة ، یعنی الافساد ، وأخيراً التضحیة بما فی الأثر من هزل . یتوجب - عندما یغرینا الطمع بالضحك من الشخصیة ، ان نحدد مكان السبب فی منطقة وسط من النفس . وإذاً یجب أن یدولنا الأثر ، فی معظمه ، وسطاً ، وكأنه یعبر عن البشر المتوسطین . وككل المتوسطات ، یحصل هذا المتوسط عن طریق تقرب المعطیات المتناثرة ، وعن طریق تقرب الحالات المتشابهة التي تعبر عن جوهرها ، وأخيراً بموجب عمل تجریدی وتعمیمی شبيه بالعمل الذي یجریه الفیزیائی علی الوقائع لكي یتخرج القوانین منها .

وباختصار إن المنهج والغرض هما من نفس الطبیعة ، هنا ، كما فی العلوم الاستقرائیة ؛ بمعنى أن الملاحظة هی خارجیة والنتیجة قابلة للتعمیم .

وهكذا نعود ، بعد دورة طويلة ، إلى الاستنتاج المزدوج الذي تحصل به خلال دراستنا . من جهة ، لا یعتبر شخصٌ ماضحكاً إلا بموجب استعداد يشبه السهو ، إلا بشيء یعیش ، علی الشخص دون أن یتنظم فیہ ، علی طريقة الطفیلی : ولهذا فإن هذا الاستعداد یلاحظ من الخارج ويمكن أيضاً أن یصحح . ولكن من جهة أخرى لما كان غرض الضحك ، هو هذا التصحیح بالذات ، فمن المفید أن یطال التصحیح بنفس الضربة العدد الأكبر الممكن

من الأشخاص . ولهذا فإن الملاحظة الهزلية تتوجه بالغريزة الى العام . انها تختار من بين الغرائب ، تلك المؤهلة للتكاثر ، والتي ، بالتالي ، ليست مرتبطة ، بلا انفكاك ، بالذات الفردية في الشخص ، غرائب مشتركة ، ان أمكن القول . فالملاحظة الهزلية - إذا نقلت هذه الغرائب الى المسرح - تخلق أعمالاً فنية بدون شك من حيث انها لا تهدف إلا الى الإرضاء ، ولكنها تختلف عن بقية الأعمال الفنية من حيث سمتها العمومية ، كما أيضاً من حيث خلفيتها اللاواعية الرامية الى التصحيح والتعليم . وإذن نحن على حق في أن نقول ان الكوميديا تقع في الوسط بين الفن والحياة . فهي ليست مجردة من كل غاية كما الفن الخالص . ويتنظيمها للضحك ، فهي تقبل الحياة الاجتماعية كوسط طبيعي ؛ وهي تتعقب حتى إحدى غرائز ودوافع الحياة الاجتماعية . وحول هذه النقطة انها تختلف عن الفن الذي هو انقطاع عن المجتمع وعودة الى الطبيعة البسيطة .

II

لننظر الآن ، سنداً لما تقدم ، كيف نتدبر الأمر من أجل خلق الاستعداد لدى شخصية هزلية مثالية ، هزلية بذاتها ، هزلية في أصولها ، وهزلية في كل مظاهرها . ويجب أن يكون هذا الاستعداد عميقاً ، لكي يقدم للكوميديا غذاءً دائماً ، سطحيّاً مع ذلك ، من أجل البقاء ضمن نبرة الكوميديا ، وغير مرثي من صاحبه الذي يملكه ، لأن المضحك هو لا وعي ، مرثياً من بقية الناس ، لكي يثير الضحك الشامل ، مملوءاً بالتسامح مع النفس حتى يتوسع بدون حرج ، مضايقاً الآخرين ، حتى يقمعوه بدون شفقة ، قابلاً للتصحيح مباشرة ، حتى لا يكون من غير المفيد الضحك منه ، واثقاً من تولده من جديد تحت مظاهر جديدة ، حتى يجد الضحك ما يعمل دائماً ، غير منفصل عن الحياة الاجتماعية ، وان ثقلت وطأته على المجتمع ، وأخيراً وحتى يأخذ أكبر

تشكيلة من الأشكال الخيالية ، ان يكون قابلاً للاضافة الى كل العيوب وحتى الى بعض الفضائل . هذه هي العناصر التي يجب صهرها معاً . إن الكيميائي النفسي الذي يُسندُ اليه هذا الإعدادُ الدقيقُ سوف يكون منزعجاً . وبحق ، عندما تأتي اللحظة التي يتوجب عليه فيها « إفراغ قرنه » للتقدير . فهو سوف يجد أنه قد بذل الجهد الكثير لاعادة تركيب خليط ، يمكن الحصول عليه جاهزاً وبدون نفقة ، شائعاً في البشرية كشيوع الهواء في الطبيعة .

هذا الخليط هو الغرور . ولا أعتقد بوجود عيب أكثر سطحية وأكثر عمقاً من الغرور . إن الجراح التي يسببها الغرور لا تكون إطلاقاً خطيرة ، ومع ذلك فهي لا تريد أن تشفى . والخدمات التي يؤديها هي الأكثر صورية بين كل الخدمات ؛ ومع هذا فإن هذه الخدمات هي التي تترك وراءها اعترافاً بالجميل باقياً . الغرور بذاته قلماً يكون عيباً ، ومع ذلك فكل العيوب تدور حوله ، وتنزع ، وهي تتصفى ، لأن تكون مجرد وسائل لإرضائه . إن الغرور ينبثق عن الحياة الاجتماعية ، لأنه إعجاب بالذات مرتكز على الإعجاب الذي نطن أنا نوحيه الى الآخرين ، وهو أقرب أن يكون طبيعياً أيضاً ، وهو فطري ، وهو عالمي أكثر من الأنانية ، لأن الطبيعة تغلب الأنانية غالباً ، في حين أننا بالتفكير فقط نتغلب على الغرور . وفي هذا الشأن لا أعتقد أننا نولد متواضعين أبداً ، هذا إذا لم نشأ أن نسمي تواضعاً بعض الحياء الجسدي الخالص ، الذي هو أقرب الى العجرفة مما يُعتقد . ان التواضع الحقيقي لا يمكن أن يكون إلا تأملاً حول الغرور . إنه يتولد من مشاهدة أوهام الغير ومن خشية الوقوع في الضلالة ، إنه نوع من التحفظ العلمي تجاه ما يقوله المرء عن نفسه ، وما يفكر به تجاهها . إن التواضع يكون من التصحيحات والتصويبات ؛ وأخيراً إن التواضع هو فضيلة مكتسبة .

من الصعب القول في أية لحظة بالضبط ينفصل السعي من أجل أن نصبح

متواضعين عن الخشية من أن نصبح سخفاء مضحكين . ذلك أن هذا السعي وهذه الخشية يختلطان حتماً عند المنشأ . إن دراسة كاملة لأوهام الغرور ، والسخف الملتصق به ، توضّحُ بنورٍ فريد ، نظرية الضحك . ففيها نشاهد الضحك يقوم بانتظام بوحدة من الوظائف الرئيسية ، وهي تذكير الوعي بحالات الغفلة والسهو وبالتالي الحصول على أكبر قدر من الألفة الاجتماعية في كل السمات الشخصية . سوف نرى كيف أن الغرور - الذي هو نتاج طبيعي للحياة الاجتماعية - يسمم ، مع ذلك ، المجتمع ؛ كما تفعل بعض السموم الخفيفة التي يفرزها جسمنا باستمرار فتسممه على المدى الطويل ، إذا لم تأتِ افرازات أخرى لتجمد أثرها . إن الضحك يقوم باستمرار بعمل من هذا النوع . بهذا المعنى يمكن القول أن العلاج الذاتي للغرور هو الضحك ، وإن النقيصة المضحكة في أساسها هي الغرور .

عندما عالجنا الهزل في الأشكال وفي الحركة ، بيّنا كيف أن هذه الصورة البسيطة أو تلك ، المضحكة بذاتها ، يمكن أن تتداخل في صور أخرى أكثر تعقيداً ، وإن تبث فيها شيئاً من قدرتها الهزلية : وهكذا تتفسر الأشكال الأعلى مرتبة في الهزل ، بالأشكال الأدنى أحياناً .

ولكن العملية المعاكسة تحدث ربما أكثر أيضاً ، وهناك مفاعيل هزلية فجّة جداً سببها إنحدار هزل عال رفيع . هكذا الغرور . هذا الشكل العالي من الهزل ، هو عنصر نسعى مجهولين للحصول عليه بدقة ، وإن بدون وعي ، في كل مظاهر النشاط البشري وخيالنا يضعه غالباً في المكان الذي لا لزوم له فيه . ربما إلى هذا المنشأ يتوجب رد الهزل الفج الخالص الموجود في بعض الآثار التي فسرها علماء النفس بصورة كافية بالتمايز أو المفارقة : رجل قصير ينحني لكي يمر تحت باب كبير ؛ شخصان ، أحدهما عالٍ جداً ، والآخر رفيع ، يشيان بمهابة يتأبط أحدهما ذراع الآخر ، الخ . وإذا نظرت - من قرب - إلى

هذه الصورة الأخيرة ، تجدد ، حسب ما أعتقد ، أن الأصغر من الشخصين يبدو وكأنه يبذل جهداً لكي يشغل نفسه نحو الأكبر ، مثل الضفدع التي تريد أن تنفخ نفسها لتساوي الثور . ولا يتسع المجال هنا لتعداد خصوصيات السمات التي ترتبط بالغرور ، أو التي تنافسه ، لكي تفرض نفسها على انتباه الشاعر الهزلي .

III

ولا يتسع المجال هنا لتعداد خصوصيات السمات التي ترتبط بالغرور، أو التي تنافسه ، لكي تفرض نفسها على انتباه الشاعر الهزلي . لقد بينا أن كل العيوب قد تصبح مضحكة ، وحتى بعض المزايا أيضاً . وطالما أن لائحة قد توضع للسخافات المضحكة المعروفة ، تقوم الكوميديا بإطالتها ، ليس فقط ، بدون شك ، بخلق هزليات من صميم الخيال ، بل باكتشاف توجهات هزلية مرت حتى الآن غير منظورة : وهكذا يستطيع الخيال أن يعزل في الرسم المعقد لسجادة واحدة فريدة صوراً ورسوماً دائمة التجدد . والشرط الأساسي ، كما نعرف ، هو أن الخصوصية الملحوظة تظهر في الحال كنوع من الإطار حيث يستطيع الكثير من الأشخاص الولوج .

ولكن هناك أطر جاهزة ، يشكلها المجتمع بالذات ، وضرورية له بحكم أنه مرتكز على تقسيم العمل . أريد أن أتكلم عن الحِرَفِ والوظائف والمهن . كل مهنة خاصة ، تعطي للذين يحسبون أنفسهم داخلها بعض العادات الفكرية وبعض الخصوصيات في الشخصية ، تجعلهم يتشابهون فيما بينهم ، وبها يتميزون عن غيرهم . وتتكون مجتمعات صغيرة ، هكذا داخل المجتمع الكبير . لا شك أنها تنتج عن تنظيم المجتمع بالذات ، عموماً ، ومع ذلك فهي توشك ، ان هي انعزلت كثيراً ، أن تضر بالألفة . ولكن الضحك

وظيفته بالضبط أن يجمع الميول الحادة الانفصالية . إن دوره يقوم على تصحيح الجمود وقلبه الى ليونة ، ثم إعادة تكييف كل فرد ليتلاءم مع الجميع ، حتى تستدير الزوايا . ونحن سيكون لدينا هنا نوع من الهزل أنواعه وأشكاله يمكن أن تحدد بصورة مسبقة ، ونسميه ، إن شئتم ، الهزل المهني .

نحن لن ندخل في تفصيل هذه المنوعات . إننا نفضل التركيز على ما فيها من مشترك . في الخط الأول يظهر الغرور المهني . إن كلاً من معلمي مسيو جوردان يضع فنه فوق كل الفنون الأخرى . هناك شخصية عند لايش لا تفهم انه يمكن أن يكون هناك شيء آخر غير تاجر الخشب . إن الغرور يميل هنا لكي يصبح إحتفالاً وتبجيلاً ومراسم بمقدار ما تحتوي المهنة الممارسة من مقدار عالٍ من الشعوذة . إذ هناك واقعة ملحوظة وهو ان الفن كلما كان عرضةً للمنازعة ، كلما مال الذين يزاولونه الى الاعتقاد بأنهم مكلفون برسالة مقدسة ، وإلى الإصرار على الانحناء أمام أسرارها . إن المهن المقيدة وضعت للجمهور ، بشكل جلي ؛ ولكن المهن التي يشك بمنفعتها ، لا تستطيع أن تبرز وجودها إلا بافتراض أن الجمهور إنما صنع من أجلها : ولكن ، هذا الوهم بالذات هو في أساس الاحتفال . إن هزل أطباء مولير يأتي ، في معظمه من هنا . فهم يعاملون المريض وكأنه خلق من أجل الطبيب ، وان الطبيعة بالذات إنما خلقت كتابع للطب .

وهناك شكل آخر لهذا الجمود الهزلي هو ما نسميه « الجمود المهني » . إن الشخصية الهزلية تلجُ بدقة في الإطار الجامد لوظيفتها حتى لا يعود هناك مكان للحركة الذاتية ، ويشكل خاص للانفعال ، كما يحصل للرجال الآخرين . لتذكر كلمة القاضي بيرن داندين الى ايزابيل التي طلبت اليه كيف يمكنه رؤية تعذيب التعساء :

« إه ! هذا يُمْكِنُنا دائماً من تمضية ساعة أو ساعتين » .

أليس هو نوع من القسوة المهنية التي هي قسوة تارتوف ، وهو يعبر عن نفسه ، بلسان أورغون :

« ولو اني شاهدت سوت الأخ ، والأولاد ، والأم والزوجة لما اهتممت كمثل اهتمامي هذا ! » .

ولكن الوسيلة الأكثر شيوعاً لدفع مهنة ما إلى الهزل هو حصرها - ان أمكن القول - داخل الكلام الخاص بها . وجعل القاضي والطبيب ، والجندي يطبقون على الأشياء المعتادة لغة القانون ، أو الاستراتيجية أو لغة الطب ، كما لو أصبحوا غير قادرين على أن يتكلموا ببقية الناس . ان هذا النوع من الهزل ، عادة ، هو هزل فج نوعاً ما . ولكنه يصبح أرق ، كما سبق وقلنا ، عندما يتكشف عن خصوصيته في الشخصية ، وبذات الوقت عن عادة مهنية . نذكرُ بالمقامر عند رنيار ، وهو يتكلم بأصالة كبيرة بكلمات اللعب ، مطلقاً على خادمه اسم هكتور⁽¹⁾ العظيم ، وهو يطلب اليه القيام بمناداة خطيبته بهذه الكلمات : « بالأس (2) » ، [نادها] بالاسم المعروف « سيدة البستوني »⁽³⁾ ، (دام ديك) . أو أيضاً « السيدات العالمات » ويقوم هزلهن ، في قسم كبير منه ، على أنهن ينقلن الأفكار العلمية بكلمات الاحساس الأثوي : « أموت بايقور . . » ، « انا أعشق الزوابع » ، الخ . فإذا قرأنا الباب الثالث نجد أن ارماند ، فيلامنت وييليز يتكلمن بانتظام بهذا الأسلوب .

وبالتركيز ، فيما بعد ، على نفس الاتجاه ، نجد أيضاً منطقاً مهنيّاً ، أي

(1) هكتور ، زعيم طروادة ، الابن البكر ليريام ، تزوج من أندروماك ، وهو والد استياناكس . قتله آشيل .

(2) نعت طقسي لآلهة أثينا .

(3) يريد المؤلف أن يقول ان المقامر غلبت على لسانه لغته المهنية .

أساليب في التحليل العقلي يتم تعلمها في بعض الأوساط ، وتبدو صحيحةً بالنسبة الى الوسط ، وخطأً بالنسبة الى بقية الناس . ولكن الفرق بين هذين المنطقيين ، الأول خاص والثاني عام ، يولد بعض الآثار الهزلية ذات الطبيعة الخاصة ، ويكون من المفيد التوقف عندها لمدة أطول . إننا نلامس هنا نقطة مهمة في نظرية الضحك . واننا سوف نوسع المسألة ومعالجتها بكل عموميتها .

IV

لقد حرصنا فعلاً على استخلاص السبب العميق للهزل ، فاضطررنا الى أن نهمل حتى الآن أحد مظاهره الأكثر بروزاً . نريد أن نتكلم عن المنطق الخاص بالشخصية الهزلية وبالمجموعة الهزلية ، منطق غريب ، يمكن ، في بعض الأحوال ، ان يخصص مكاناً واسعاً للامعقولية .

قال تيوفيل غوتيه عن الهزل الجارح أنه منطق اللامعقول . العديد من فلاسفة الضحك يدورون حول فكرة مماثلة . كل أثر هزلي يقتضي التناقض من بعض الجهات . ما يضحكنا ، هو اللامعقول المحقق ، بشكل محدد ، إنه « لا معقولية واضحة مرئية » ، - أو هو أيضاً شبه لا معقولية ، مقبولة أولاً ثم مصححة في الحال ، - وأفضل من ذلك انه ال « لا معقول » من ناحية ، المقابل للتفسير من ناحية أخرى بشكل طبيعي ، الخ . كل هذه النظريات تحتوي ، بدون شك ، قسماً من الحقيقة ؛ ولكنها لا تطبق الا بعض الآثار الهزلية البارزة نوعاً ما ، وحتى في الحالات التي تطبق فيها هذه النظريات ، فهي تهمل - على ما يبدو ، العنصر المميز للمضحك ، أي النوع الخصوصي لللامعقولية الذي يحتويه الهزل عندما يحتوي اللامعقول . هل نريد الاقتناع بذلك ؟ ما علينا الا اختيار أحد هذه التعاريف ثم تأليف « آثار » . (احداث مضحكة) وفقاً له . وفي أغلب الأحيان ، لا نحصل على مفعول مضحك .

إن اللامعقولية ، عندما نجدها في الهزل ، ليست لا معقولية عادية . إنها لا معقولية محددة . إنها لا تخلق الهزل ، بل هي متفرعة عنه وهي ليست سبباً ، بل هي أثر - إنها أثر خصوصي جداً ، فيه تنعكس الطبيعة الخاصة للسبب الذي أحدث هذا الأثر . اننا نعرف هذا السبب . ونحن لا نجد الآن صعوبة في فهم الأثر .

إني أفترض أنك سوف تشاهد ، يوماً ما ، وأنت تتنزه في الريف ، على رأس هضبة شيئاً ما يشبه بغموض جسماً كبيراً جامداً له أذرع تدور . إنك لم تعرف بعد ، ما هو . ولكنك تفتش في أفكارك ، أي ، بين الذكريات التي تتوفر لذاكرتك ، عن الذكرى التي تتلاءم مع ما تشاهده ، بصورة أفضل . وفي الحال تقريباً ، تخطر ببالك صورة المطحنة الهوائية : إنها مطحنة هوائية هي التي تشاهدها أمامك . ولا يهم أن تكون قد قرأت ، لتوك ، قبل خروجك ، حكايات عن الجنيات مع قصص عن العمالقة ذات الأذرع الطويلة جداً . إن الحس السليم يقضي بحسن التذكر : أصدق ذلك وأريده . ولكنه يقضي أيضاً بأن نعرف كيف ننسى . إن الحس السليم هو جهد فكر يتكيف ويتكيف باستمرار ، فيغير فكره عندما يتغير الموضوع . إنه حركية الذكاء التي تنتظم تماماً مع حركية الأشياء . إنه استمرارية متحركة لانتباهنا إلى الحياة .

هذا هو الآن دون كيشوت ذاهباً إلى الحرب . لقد قرأ في الروايات أن الفارس يلتقي عمالقة أعداء في طريقه . وإذا لا بد له من عملاق . إن فكرة العملاق هي ذكرى مميزة تركزت في ذهنه ، وبقيت هذه الذكرى في الظل ، ترقب جامدة الفرصة لكي تظهر إلى الخارج فتتجسد في شيء ما . إن هذه الذكرى تريد أن تتجسد وتتجمد ، وبعدها تتلقى أول شيء يطل ويظهر ، حتى ولو لم يكن بينه وبين شكل العملاق ، إلا شبهاً بعيداً - تتلقى من الذاكرة

شكل العملاق . وإذا يشاهد دون كيشوت عمالقة حيث نشاهد نحن مطاحن هوائية . إن هذا مضحك وهذا غير معقول ولكن هل هذه اللامعقولية هي مطلق لا معقولية ؟

إنها مناقضة خصوصية جداً للحس العام . وهي تقوم على الطُموح الى نمذجة الأشياء وفقاً لفكرة متكونة لدينا ، وليس نمذجة أفكارنا وفقاً للأشياء . إنها تقوم على رؤية ومشاهدة ما نفكر به وكأنه ماثل أمامنا ، بدلاً من التفكير فيما نرى ونشاهد . الحس السليم يقضي بأن نترك كل ذكرياتنا في الصف في الدرج ؛ وتستجيب الذكرى اللازمة الخاصة ، في كل مرة ، لنداء الوضع القائم ولا تُستخدَم الا لتفسيره . عند دون كيشوت ، العكس هو الصحيح ، هناك مجموعة من الذكريات تتحكم بالأخريات ، وتسيطر على الشخصية بالذات : الواقع هو الذي يجب أن يخضع هذه المرة أمام الخيال ، ولا يُستخدَم الا لكي يكون جسداً لهذا الخيال . وبعد أن يتشكل الوهم ، ينميه دون كيشوت ، هكذا ، بتعقل مع كل ما يلحقه من عواقب ؛ ويتحرك ، فيه ، بوثوق وبدقة الشخص المروص الذي يمثل حلمه . ذلك هو أصل الغلط ، وذلك هو المنطق الخاص الذي يسود هنا اللامعقولية ، والآن ، هل هذا المنطق خاص بدون كيشوت ؟

سبق وبيّنا أن الشخصية الهزلية تشكو من عناد الفكر أو عناد الشخصية ، أو من السهو - الشرود ، أو من الاوتوماتية . يوجد في أساس الهزل جمود من نوع ما ، يجعلنا نسير في دربنا بخط مستقيم ، وان لا نسمع وان لا نريد أن نسمع . كم من المشاهد الهزلية ، في مسرح مولير ، تُرد الى هذا النمط البسيط : شخصية تتبع فكرتها ، وتعود اليها دائماً ، في حين تجري مقاطعتها باستمرار ! ويتم الانتقال ، بشكل غير محسوس ، من الذي لا يريد أن يسمع شيئاً الى الذي لا يريد أن يرى شيئاً ، وأخيراً الى الذي لا يرى الا ما يريد . إن

الفكر الذي يعاند ينتهي الى إخضاع الأشياء لفكره بدلاً من أن يضبط فكره على الأشياء . كل شخصية هزلية هي إذاً على طريق الوهم الذي سبق ووصفناها ، ودون كيشوت يقدم لنا النمط العام للامعقولية الهزلية .

هذه المناقضة للحس العام هل لها اسم ؟ إننا نجد لها ، بدون شك ، حادة أو مستعصية ، في بعض أشكال الجنون . وهي تشبه في كثير من النواحي الفكرة الثابتة . ولكن لا الجنون عموماً ولا الفكرة الثابتة تضحكننا ، لأنها مرضان . إنها يستثيران شفتنا . الضحك - ونحن نعرف ذلك - مناقض للاندفاع ، وإذا كان من جنون مثير للضحك ، فلا يكون إلا جنوناً يلائم العافية العامة للفكر ، جنون عادي ، إن أمكن القول . ولكن هناك حالة طبيعية فكرية تحاذي ، من جميع النواحي ، الجنون ، حيث نجد نفس تداعيات الأفكار كما في الجنون ، ونفس المنطق الغريب كما في الفكرة الثابتة . إنها حالة الحلم . بعد هذا أو أن تحليلنا غير سليم ، أو أنه يجب أن يصاغ ضمن القاعدة التالية :

اللامعقولية الهزلية هي من ذات طبيعة لا معقولية الأحلام .

أولاً - إن مسار الفكر في المنام هو تماماً ، المسار الذي وصفناه توطأ . فالفكر ، المحب لذاته ، لا يفتش عندئذ في العالم الخارجي إلا عن ذريعة لتجسيد خيالاته . تأتي أصوات غامضة الى الأذن ، وألوان تدور أيضاً في حقل الرؤية : وباختصار إن الحواس لا تكون مغلقة تماماً . ولكن الحالم ، بدلاً من أن يستعين بكل ذكرياته لكي يُفسر ما تدركه حواسه ، يستخدم - بالعكس - ما تدركه حواسه لكي يجسد ذكراه المفضلة : ان نفس صوت الريح النافخ في المدخنة ، يصبح عندئذ - بحسب الحالة النفسية عند الحالم ، وبحسب الفكرة التي تشغل خياله - زجاجة أسود أو غناء إيقاعياً . تلك هي الأولية العادية لوهم الحلم .

ولكن إذا كان الوهم الهزلي هو وهم الحلم ، وإذا كان منطق الهزل هو منطق المنامات . فمن المتوقع العثور في منطق المضحك ، على مختلف خصوصيات منطق الحلم . هنا أيضاً سوف يتحقق القانون الذي نعرفه جيداً : إذا توفر لنا أحد الأشكال المضحكة ، فإن أشكالاً أخرى ، لا تحتوي نفس العمق الهزلي ، تصبح مضحكة بحكم مشابهتها الخارجية للشكل الأول . من السهل أن نرى فعلاً ، أن كل « لعبة فكرية » تستطيع أن تسلينا ، شرط أن تذكرنا ، من قريب أو من بعيد ، بألعاب الحلم .

نذكر في المقام الأول نوعاً من التراخي العام في قواعد التحليل العقلي . ان التحليلات التي تضحكننا هي التي نعرف أنها خاطئة ، والتي يمكن أن نعتبرها حقيقية ، أن نحن سمعناها في الحلم . انما تقلد التحليل العقلي الصحيح ، الى حد خداع فكر النائم . إن هذا يدخل في المنطق أيضاً ، إن شئنا ، ولكنه منطق تنقصه « النبوة » . وهو يريحنا - بهذا بالذات - من العمل الفكري . الكثير من « ومضات الفكر » هي تحليلات من هذا النوع . تحليلات موجزة ، لا يتيسر لنا عنها إلا نقطة الانطلاق والاستتاج . هذه الألعاب الفكرية تتطور ، أيضاً ، نحو لعبة الكلمات ، بمقدار ما تصبح العلاقات القائمة بين الأفكار أكثر سطحية : ونصل تدريجياً الى عدم الالتفات الى معنى الكلمات المسموعة ، بل الى الضوت . أولاً يجب أن نُقَرَّبَ بالتالي ، من الحلم بعض المشاهد الهزلية جداً ، حيث تُرَدَّدُ شخصيةً بشكلٍ منهجيٍّ معاكس ، جُملاً تهتفُ بها شخصيةً أخرى همساً في الأذن ؟ إذا نمت وسط أشخاص يتكلمون ، فإنك تجد أحياناً أن كلامهم يفرغ تدريجياً من معناه ، وان الأصوات تتغير أشكالها ، وتلتحم معاً ، عشوائياً ، لكي تأخذ في ذهنك معاني غريبة عجيبة ، وانك تقوم هكذا ، تجاه الشخص الذي يتكلم ، بتمثيل مشهد « حنا الصغير » والملقن .

وتوجد أيضاً « وسوساتٌ هزلية » تقترب كثيراً - على ما يبدو - من وسوسات الأحلام . من لم يحصل له أن رأى نفس الصورة ، تعود لتظهر في عدة أحلام متتالية ، وتتخذ في كل منها معنىً مستساغاً ، في حين أن هذه الأحلام ليس فيها من نقطة مشتركة أخرى ؟ ان مفاعيل التكرار تصورُ أحياناً هذا الشكل الخاص في المسرح وفي الرواية : إن بعضاً من هذه الآثار له ارتباطات الحُلم . وربما كان هذا هو شأن اللازمة في كثير من الأغاني : إنها تثابر ، وتعود ، كما هي دائماً ، في أواخر كل المقاطع . وفي كل مرة بمعنىً مختلف .

وليس من النادر أن نشاهد في الحلم ، « تصعيداً » خصوصياً ، غريبةً تتفاقم ، كلما تقدمنا فيه . إن أول تنازل يُتَرَعَّع من العقل يجر وراءه آخر ، وهذا الآخر يجر آخر أكثر خطورةً ، وهكذا وصولاً إلى اللامعقولية الأخيرة . ولكن هذا المسار نحو اللامعقول يعطي للحالم ، إحساساً فريداً . إنه حسب ما أعتقد إحساسٌ يشعر به الثمل عندما يُحسُّ أنه انزلق بلذّةٍ نحو حالة ، من التخلي لا يعود يهيمه فيها لا المنطق ولا اللياقات . أنظر الآن الى بعض تمثيلات (كوميديات) موليير وإذا كانت توحى بنفس الإحساس : مثلاً ميسو بورسونياك الذي يبدأ تقريباً بشكل معقول ثم يستمر بتجاوزات من كل نوع ، حيث تبدو الشخصيات - كلما تقدمنا - مستسلمة لعاصفةٍ من الجنون . « لو أمكن أن نرى شخصاً أكثر جنوناً ، لذهبت أنادي بذلك في روما » : هذه الكلمة ، التي تنبهنا الى أن التمثيلية قد انتهت ، تخرجنا من حلم تتزايد غرابته ، نفوص فيه نحن مع م . جوردان .

ولكن هناك بشكل خاص هلوسةٌ خاصة بالحلم . هناك بعض التناقضات الخصوصية ، المألوفة جداً من خيال الحالم ، المُناقِيةُ لعقل الانسان المستيقظ ، حتى ليستحيل إعطاء فكرة صحيحة وكاملة عنها إلى الذي

لم يجربها . إننا نشير هنا الى الاندماج العجيب الذي يحدثه الحلم بين شخصين بحيث يصبحها شخصية واحدة رغم بقائهما منفصلين . ويكون النائم عادة أحد الشخصين بالذات . انه يحس أنه لم ينفك هو هو ذاته ؛ رغم أنه تحول الى شخص آخر . إنه هو ، وليس هو . إنه يسمع نفسه يتكلم ، ويرى نفسه يتصرف ، ولكنه يشعر أن شخصاً آخر استعار منه جسده وأخذ منه صوته . أو أيضاً انه يعي انه يتكلم ويتصرف كما هو معتاد ؛ إلا أنه يتكلم عن نفسه كما لو كان يتكلم عن غريب ليس له معه أدنى علاقة مشتركة ؛ إنه يكون قد انفصل عن ذاته . ألا نجد هذا الوهم غريباً في بعض المشاهد الهزلية ؟ أنا لا أتكلم عن « أمفيثريون » ، حيث اللبسُ مفروضٌ - بالتأكيد - على فكر المشاهد ، ولكن حيث معظم الأثر الهزلي ، يتأتى ، بصورة أولى - مما سميناه أعلاه « تداخل سلسلتين » . إني أتكلم عن التحليلات العقلية المسرفة والهزلية ، حيث نجد هذا اللبس حقاً في حالته النقية الخالصة ، رغم أنه لا بد من جهد في التفكير لاستخراجه . استمع مثلاً إلى هذه الأجوبة التي أدلى بها مارك توين الى مراسل صحفي جاء يقابله : « هل لك أخ ؟ - نعم ؛ كنا نسميه بيل ، بيل المسكين ! - لقد مات إذا ؟ - هذا ما لم نتوصل الى معرفته أبداً . هناك غموض كبير يلف هذه القضية . لقد كنا ، المرحوم وأنا ، توأمين ، وقد تحمنا ، يوم كان عمرنا خمسة عشر يوماً ، في نفس المغطس . فغرق أحداً فيه ، ولكنهم لم يعرفوا من منا غرق . البعض يظن أن بيل هو الذي غرق ، وآخرون يظنون أنني أنا الذي غرق . - عجيب . ولكن أنت ، ما هو رأيك ؟ - اسمع ؛ أريد أن أبوح لك بسر لم أكشفه بعد لمخلوقٍ يعيش . كان أحداً يحمل علامة خاصة فارقة ، « حَسَوْتَة » ضخمة في قفا اليد اليسرى ؛ وصاحب الحسونة هو أنا ؛ . وهذا الولد هو الذي غرق . . . الخ » . إذا نظرنا من قرب نجد أن لا معقولية هذا الحوار ليست لا معقولية « كيفما كان » . إنها تزول لو أن الشخصية التي تتكلم لم تكن بالضبط أحد التوأمين المحكي عنها . وهي تقوم

على ما يصرح به مارك توين من أنه ' أحد التوأمين ، في حين يعبر عن نفسه كما لو كان ثالثاً يحكي حكايتها . إننا لا نرى بـخلاف ذلك في الكثير من أحلامنا .

V

يبدو لنا الهزل ، منظوراً إليه من هذه الزاوية الأخيرة ، بشكل مختلف قليلاً ، عن الشكل الذي أعطيناه إياه ، حتى الآن رأينا في الضحك ، وسيلة إصلاح بشكل خاص . نخذ استمرارية الآثار الهزلية ، أعزل ، من بعيدٍ لبعيدٍ ، الأنماط المسيطرة : انك تجد أن الآثار الوسيطة ، تستمد قوتها الهزلية من مشابهتها لهذه الأنماط . وان الأنماط نفسها هي أيضاً نماذج من الوقاحة تجاه المجتمع . ويرد المجتمع على هذه الوقاحات بالضحك ، الذي هو أيضاً وقاحة أكبر . وإذا فليس في الضحك أي شيء من الحنو . إنه - بصورة أولى - يرد الشر بالشر .

ومع هذا لا يكمن هنا الشيء الملفت في الاحساس بالضحك . ان الشخصية الهزلية هي ، في أغلب الأحيان ، شخصية تبدأ بالتعاطف معها مادياً . أريد أن أقول اننا نضع أنفسنا لبرهة وجيزة جداً ، مكانها ، ونبنى حركاتها ، وأقوالها ، وأفعالها ، ونأنس بما فيها من شيء مضحك ، اننا في الخيال ، ندعوها لكي تتسلى معنا : اننا نعاملها في بادئ الأمر ، كرفيق . وإذا يوجد لدى الضاحك على الأقل ، مظهر طيبة ، ومرحٌ محببٌ ، نخطيء ان لم نحسب لها حساباً . ويوجد في الضحك ، بشكل خاص ، حركة « تمدد » ، ملحوظة في أغلب الأحيان يتوجب علينا أن نفتش عن سببها . وهذا الانطباع ، لم يكن ، في أي مكان ، أكثر ظهوراً ، مما هو في أمثلتنا الأخيرة . هنا أيضاً ، وفضلاً عن ذلك ، نجد تفسير هذا السبب .

عندما تتبع الشخصية الهزلية فكرتها ، بصورة أوتوماتيكية ، فإنها تنتهي

بأن تفكر وتتكلم ، وتتصرف كما لو كانت تحلم . والحلم هو نوع من التمدد .
فالبقاء على اتصال بالأشياء وبالناس ، ثم الامتناع عن رؤية الا ما هو كائن ،
وعن التفكير الا بما هو قائم ، ان هذا يتطلب جهداً غير منقطع من التوتر
الفكري . إن الحس السليم هو هذا الجهد بالذات . انه عمل وشغل . ولكن
الانفصال عن الأشياء ، مع الاستمرار بمشاهدة الصور أيضاً ، والابتعاد عن
المنطق ، ومع ذلك تجميع الأفكار ، هذا هو ببساطة ، اللعب ، أو إذا
أحبينا ، هذا هو الكسل . إن اللامعقولية الهزلية تعطينا إذاً ، وفي بادئ
الأمر ، الإحساس بلعبة فكرية . إن حركتنا الأولى هي أن نشترك في هذه
اللعبة . إن هذا يريح من تعب الفكر .

ولكن يقال مثل هذا عن الأشكال الأخرى من أشكال المضحك . يوجد
دائماً في عمق الهزل - كما سبق وقلنا - الميل الى التسليم والاسترسال في منزلق
سهل ، هو ، في أغلب الأحيان منزلق العادة . إننا لا نعود نفتش عن التكيف
وعن إعادة التكيف ، باستمرار ، مع المجتمع الذي نحن أعضاء فيه . إننا
نتخلى عن الانتباه الذي يجب أن نبذله في الحياة . اننا نتشبه الى حد ما ،
بالساهي الشارد ، شرود الارادة ، - أسلم بذلك - ولكنه ، كذلك وأكثر ،
شرود العقل ؛ انه سهو ، أيضاً وبالتالي انه كسل . إننا نقطع علاقتنا
بالياقات ، كما قطعنا منذ لحظة مع المنطق . وأخيراً نتخذ وضعية من يلعب .
وهنا أيضاً تكون حركتنا الأولى تقبّل الدعوة الى الكسل .

خلال لحظة على الأقل نندمج في اللعبة . وهذا يريحنا من تعب الحياة .
ولكننا لا نستريح إلا لبرهة . فالود الذي يمكن أن يدخل في الانطباع
بالمضحك هو ود سريع الهرب . انه يأتي هو أيضاً من السهو والشرود . وعلى
هذا يندمج الأب الصلْبُ القاسي ، في بعض الأحيان ، تناسياً ، في شيطنة من
شيطنات ابنه . ولكنه يتوقف حالاً لكي يعاقب ويصلح .

إن الضحك هو قبل كل شيء تصحيح واصلاح . لقد وضع من أجل التخجيل . فيجب أن يُشيع في الشخص المضحكوك منه إحساساً متعباً . إن المجتمع ينتقم عن طريق الضحك للحريات التي أُخذت منه . ولا يبلغ الضحك هدفه إن هو اتسم بالود وبالطيبة .

هل يقال ان الغاية من الضحك يمكن أن تكون على الأقل طيبة ، واننا في أغلب الأحيان نقاصص لأننا نحب ، وان الضحك ، حين يقمع المظاهر الخارجية لبعض العيوب ، يدعونا بالتالي ، ومن أجل خيرنا الأكبر ، الى تصحيح هذه العيوب بأنفسنا ، والى تحسين باطننا ؟

هناك كثير من القول حول هذه النقطة . وعلى العموم ، يمارس الضحك وظيفة مفيدة ، ولا نشك نحن في ذلك . وكل تحليلاتنا السابقة كانت ترمي الى إثبات ذلك . ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن الضحك يضرب دائماً فيصيب ولا انه يوحى بفكرة المحبة والرحمة أو حتى العدالة .

فلكي يصيب الضحك دائماً يجب أن ينطلق من عمل فكري . ولكن الضحك هو ببساطة أثر من أوالية ركبت فينا من قبل الطبيعة ، أو - مما يعني نفس الشيء تقريباً - من قبل عادة طويلة جداً اكتسبناها في الحياة الاجتماعية . إن الضحك ينطلق وحيداً انه حقاً ضربة مقابل ضربة . وليس لديه الوقت لينظر أين يضرب في كل مرة . الضحك يعاقب بعض العيوب كما يعاقب المرض بعض التجاوزات تقريباً ، فيصيب الأبرياء ، ويتفادى المجرمين ، ويهدف الى نتيجة عامة ، لأنه لا يستطيع أن يعطي لكل حالة فردية الاحترام اللازم لدرسها على حدة . إن هذا هو الحال في كل ما يتم بالطرق الطبيعية بدلاً من اتمامه عن طريق التفكير الواعي . هناك حالة وسط عادلة يمكن أن تظهر في النتيجة الاجمالية ، لا في تفصيل الحالات الخاصة .

وبهذا المعنى لا يمكن أن يكون الضحك عادلاً بإطلاق . ونكرر أيضاً انه لا

يتوجب أن يكون طيباً . ان وظيفته هي التخجيل عن طريق التحقير . وهو لا ينجح بهذه الوظيفة لو أن الطبيعة لم تترك من أجل هذه الغاية ، حتى في أفاضل الناس - جزءاً صغيراً وعميقاً من الخبث ، أو على الأقل من الملعة . ربما يكون من الأفضل لنا أن لا نتعمق كثيراً في هذه النقطة . إننا لن نجد فيها الكثير مما نرضى عنه . سوف نرى أن حركة التمدد والتوسع ليست إلا بداية الضحك ، وان الضاحك ينكمش حالاً على نفسه ، فيتشبث بكبرياء ذاتية نوعاً ما ، ويميل الى اعتبار شخص الغير كدمية يمسك هو بخيوطها . في هذه الفرضية نكتشف سريعاً القليل من الأنانية ، ووراء الأنانية بالذات نكتشف شيئاً ما غير عفوي شديد المرارة . إنه شيء لا أعرفه من التشاؤم الناشئ يترسخ أكثر فأكثر كلما عقلن الضاحك ضحكة ، أكثر .

هنا ، كما في غير مكان ، استعملت الطبيعة الشر من أجل الخير . إن الخير هو الذي شغلنا بشكل خاص في هذه الدراسة . وبدا لنا ان المجتمع ، كلما اكتمل ، حصل من أعضائه على مرونة تكييفية أكبر فأكثر ، وانه يسعى الى التوازن بصورة أفضل وفي العمق ، وانه يطرد ، أكثر فأكثر الى السطح الارباكات التي تلازم هذه الكتل البشرية الكبيرة ، وان الضحك يقوم بوظيفة مفيدة حين يشير الى شكل هذه التموجات .

وهكذا تتصارع الامواج بدون هواده على سطح البحر ، في حين أن الطبقات السفلى تحتفظ بهدوء عميق . وتتصادم الموجات وتتضاد ساعية وراء توازنها ، ويطفوز بد أبيض خفيف ومرح ويتبع الجوانب المتغيرة من الموج . في بعض الأحيان تترك الموجة التي تهرب ، القليل من هذا الزبد على رمل الشاطئ . ويأتي الولد الذي يلعب قريباً من الشاطئ فيلم حفته من هذا الزبد ولكنه يندهش ، في اللحظة بالذات ، ان لا يجد في باطن يده غير قطرات من الماء ، إنما من ماء أكثر ملوحة ، وأكثر مرارة من ملوحة ومرارة

الموجة التي أعطت هذه القطرات . ويتولد الضحك هكذا كما الزبد . إنه يدل ، خارج الحياة الاجتماعية ، على الثورات السطحية . ويرسم في الحال وللتواشكال المتحركة في هذه الزعازع انه هو أيضاً زبدٌ أساسه الملح . وكما الزبد ، انه يفقع . هكذا البهجة . والفيلسوف الذي يَلُمُّ منه ليتذوقه ، يجد فيه أحياناً - وبالنسبة الى كمية صغيرة من المادة - معياراً ما من المرارة .

ملحق تابع للطبعة الثالثة والعشرين

حول تعاريف الهزل ، وحول النهج المتبع في هذا الكتاب .

في مقالة جذابة في « مجلة الشهر »⁽¹⁾ قارن م . ايف ديلاج مفهومنا للهزل ، بتعريف تبناه هو بنفسه فقال : « لكي - يكون شيء ما هزلياً ، يتوجب أن يكون بين الأثر وبين السبب عدم انسجام » . . ولما كانت الطريقة التي أوصلت م . ديلاج الى هذا التعريف هي نفس الطريقة التي اتبعها معظم منظري الهزل ، فلن يكون من غير المفيد أن نبين وجه الاختلاف في طريقتنا . إننا نذكر جوهر الجواب الذي سبق ونشرناه في نفس المجلة⁽²⁾ :

« يمكن تعريف الهزل من خلال سمة أو عدة سمات عامة ، منظورة من الخارج ، نكون قد التقيناها في آثار هزلية جمعناها من هنا وهناك . إن عدداً ما من التعاريف من هذا النوع قد وضعت منذ أرسطو؛ وطريقتك تبدو لي وكأنها حصلت بهذه الطريقة : لقد رسمت دائرة وبيّنت أن الآثار الهزلية ، المأخوذة عشوائياً تقع ضمن هذه الدائرة . ومنذ اللحظة التي دُوّنت فيها السمات

(1) Revue du Mois, 10 août ; t . XX, p. 337 et suiv.

(2) Ibid., 10 nov 1919; XX, p. 514 et suiv.

المبحوث بها ، من قبل مراقب ذكي ، فقد انتمت ، بدون شك الى ما هو هزلي ؛ ولكنني أعتقد أن هذه السمات نلتقيها غالباً أيضاً ، حتى في ما هو غير هزلي . ولهذا يأتي التعريف على العموم ، واسعاً جداً . أنه يُرضي - وهذا شيء مهم اعترف به - احد مقتضيات المنطق في مجال التعريف : فهو يشير الى الشرط الضروري . ولكنني لا أعتقد أنه يستطيع - نظراً للطريقة المتبعة - ان يستجمع الشرط « الكافي » . والبرهان على ذلك أن الكثير من هذه التعاريف هي أيضاً مقبولة ؛ رغم أنها لا تقول نفس الشيء . والبرهان يقوم بشكل خاص على أن أياً منها ، بحسب معرفتي ، لا يقدم الوسيلة من أجل بناء الموضوع المحدد ، وهو صنع الهزل (1) .

« لقد حاولتُ شيئاً ما مختلفاً تماماً . لقد بحثت في الكوميديا وفي المهزلة ، وفي فن المهرج ، الخ ، عن أساليب صنع الهزل . وظننت أنني رأيت انها متغيرات لموضوع أو لطرح أكثر عمومية . وقد دونت هذا الطرح ، من أجل التبسيط ؛ ولكن المتغيرات هي التي تعتبر مهمة بشكل خاص . ومهما يكن من أمر ، يقدم الطرح تعريفاً عاماً ، هو هذه المرة قاعدة بناء . إنني أعتز ، مع هذا أن التعريف الحاصل على هذا الشكل يوشك أن يبدو ، لأول وهلة ، ضيقاً جداً ، كما التعاريف الحاصلة بواسطة الطريقة الأخرى ، والتي كانت واسعة جداً . إنه يبدو ضيقاً جداً ، لأنه يوجد - الى جانب الشيء المضحك في جوهره ، وفي ذاته ، المضحك بالنظر الى بنيته الداخلية ، - جملة من الأشياء تضحك يفعل هشابته السطحية لهذا المضحك بذاته ، أو بفضل نوع من الرابط العرضي مع الشيء الآخر الذي يشبه الشيء المضحك ؛ وهكذا دواليك . إن قفز المضحك لا حدود له ، لأننا نحب الضحك ، وكل الذرائع

(1) لقد بينا باختصار في أكثر من مقطع من كتابنا ، قصور هذه الطريقة أو تلك .

اليه تبدو لنا جيدة . إن أوالية تداعيات الأفكار هي هنا ذات تعقيد متناهٍ ، بحيث ان العالم النفسي الذي يباشر دراسة الهزل بهذه الطريقة - والذي يتعين عليه أن يقاوم صعوبات تتجدد باستمرار ، بدلاً من الخلاص منها دفعة واحدة بواسطة الهزل ، وذلك بوضعه ضمن صيغة - هذا العالم يتعرض دائماً للانتقاد بأنه لم يُجب فعلاً على كل الوقائع . وعندما يكون قد طبق طريقته على الأمثلة التي تعرض عليه ، وبرهن على أنها قد أصبحت هزلية بالتشابه مع ما كان هزلياً بذاته ، فإننا نجد وقائع أخرى مثلها وبسهولة ، وأخرى أيضاً : فيكون عليه دائماً أن يعمل وأن يشتغل . وبالمقابل ، يكون قد خفق الهزل بدل أن يكون قد حصره ضمن دائرة واسعة نوعاً ما . ويكون - إن نجح - قد أعطى الوسيلة لفبركة الهزل . ويكون قد انطلق بدقة وبصرامة العالم ، الذي لا يؤمن بأنه تقدم في مجال معرفة شيء ما ، عندما يكتفي بإعطائه هذا النعت أو ذاك ، مهما كان هذا النعت صائباً (ونجد من تلك النعوت الكثير الكثير الذي يلائم) : اننا نحتاج الى تحليل ، ونكون على يقين من التحليل الكامل عندما نستطيع أن نعيد التأليف والتكوين . ذلك هو المشروع الذي حاولت أن أقوم به .

« وأضيف انني بذات الوقت الذي حاولت فيه أن أحدد وسائل صنع المضحك ، بحثت عن غاية المجتمع عندما يضحك . إذ من المدهش جداً أن نضحك . والطريقة في التفسير التي تكلمت عنها أعلاه لا توضح هذا السر الصغير . فلست أرى مثلاً ، لماذا « عدم الانسجام » بحكم أنه « عدم انسجام » ، يثير لدى المشاهدين مظهراً خصوصياً مثل مظهر الضحك ، في حين أن خصائص أخرى كثيرة - مزايا أو عيوب - تترك بصمات اللامبالاة على عضلات وجه المشاهد ويبقى إذاً أن نفتش عن السبب الخصوصي « لعدم التناسق » الذي يعطي الأثر الهزلي .

ولن نعثر حقاً على هذا السبب إلا إذا استطعنا أن نفسر بواسطته ، في مثل هذه الحالة ، لماذا يشعر المجتمع بأنه ملزم بالتظاهر . يجب أن يكون في سبب الهزل شيء ما من التآمر الخفيف ، (شيء من الاعتدائية الخاصة) على الحياة الاجتماعية ؛ لأن المجتمع يرد على ذلك بحركة تبدو وكأنها ردة فعل دفاعية ، بحركة تخيف قليلاً . عن هذا كله أردت أن أجيب .

فهرس

الموضوع	الصفحة
توضيح من المترجم	5
المقدمة	7
الفصل الاول : الهزل عموماً.. هزل الاشكال وهزل الحركات . قوة انتشار الهزل	
الفصل الثاني : هزل الواقع وهزل الكلمات	49
الفصل الثالث : هزل الشخصية او الطابع	89
ملحق حول تعاريف الهزل وحول النهج المتبع في هذا الكتاب	131

هذا الكتاب

في الوقت الذي أردت أن أحدد فيه أساليب صنع المضحك ، حاولت أن أبحث عن هدف المجتمع عندما يضحك . إذ من المدهش حقاً أن نضحك ؛ والمنهج التفسيري الذي تكلمت عنه في هذا الكتاب لا يوضح هذا السر الصغير . ولا أرى مثلاً ، لماذا يشير « اللانسجام » ، بصفته هذه ، في الحضور ، تصرفاً خصوصياً مثل الضحك ، في حين أن صفاتٍ أخرى كثيرة ، مزايا أو مساوئ ، ترك لدى المشاهد « لا مبالاة » تبدو على عضلات وجهه .

ويبقى أن نبحث إذاً عن السبب الخاص الذي يُحدث « اللانسجام » الذي يولد بدوره الأثر الهزلي . ولا يمكن العثور على هذا السبب فعلاً إلا إذا أمكننا أن نفسر عن طريقه ، في مثل هذه الحال ، لماذا يشعر المجتمع بالحاجة الى التظاهر . يجب أن يكون في سبب الشيء المضحك ، شيء ما ، وإن خفيف ، من التواطؤ (ومن التواطؤ الخاص جداً) على الحياة الاجتماعية ، لأن المجتمع يجيب عليه بإشارة تبعث على الخوف قليلاً . عن هذا كله أردت التوضيح

هنري برغسون

